تاريخ ما بين السطور

هنري الرابع و الحرب الصليبية للصلبية

رمضان مصطفى سليمان

بين التاج والصليب

مسرح الخطيئة المقدسة وصراع العروش المضمَّخ بالإيمان

لم تكن العلاقات بين فرنسا وإنجلترا، في ذلك العصر الذي اختلطت فيه السياسة بالدين حتى صار أحدهما ظلًّا للآخر، مجرد نزاعات حدودية أو طموحات توسعية؛ بل كانت عقدة متشابكة الجذور، تتغذى من رحم المذهب، وتشتعل بنار العقيدة، وتُدار خلف الستار بأيدٍ ترتدي قفازات القداسة وتخفي تحتها مخالب الطمع.

كان الدين أو ما ظُنّ أنه الدين هو الأداة الأشد فتكًا، والأكثر خداعًا. ومن فوق عرش روما، حيث يجلس البابا محاطًا بهالة من الهيبة والرهبة، وُزِّعت الألقاب كما تُوزّع النياشين في ساحات المعارك، لكنها لم تكن بريئة. كان أعظمها، وأطولها رنينًا، لقب :، **حامية الكاثوليكية**

لقبٌ بدا كأنه صلاة، لكنه في حقيقته كان سيفًا.

فرنسا، تلك المملكة التي تعلّمت كيف تلبس التقوى كدرع، لم تكن وحدها في هذا السباق. فقد وقفت إسبانيا، شامخة، متحفزة، تنازعها هذا الشرف، أو ما ظنته شرفًا. ولم يكن الأمر مجرد لقب، بل كان اعترافًا بالزعامة الروحية، ووسامًا يمنح صاحبه حق التسلط باسم السماء.

في أعماق قصر فرساي، جلس الملك الفرنسي ذات ليلة، وقد بدا عليه الإرهاق، يحدق في الشموع التي تذوب ببطء، كأنها تهمس له بحقيقة يعرفها ويخشى الاعتراف بها.

قال لنفسه، في حوار داخلي مضطرب:

، أيكون الطريق إلى الله مفروشًا بالدم؟ أم أن الله صار ذريعة للطريق إلى العرش؟ ،

لكن صوته الداخلي لم يجد جوابًا، فقد كانت الجدران أسمك من أن تسمع، والقلوب أقسى من أن تشفق.

X

أما في إسبانيا، فكان المشهد أكثر تعقيدًا، وأكثر سوداوية.

الإمبراطور شارلكان—ذلك الرجل الذي جمع بين قسوة المحارب وتديّن المتصنّع—كان يعيش ازدواجية تكاد تمزقه. كلما أثقلته خطاياه، أو داهمه شبح الشيخوخة، لجأ إلى الدير، كأنما يهرب من نفسه إلى الله.

وفي إحدى تلك الليالي، وقف أمام رئيس دير بوست، وقد انحنى رأسه، وصوته متهدّج:

، دعوني أقضي ما تبقى من عمري في السجود، في الصمت، في التأمل... لعل المسيح يغفر لي. ،

لكن الراهب سانتوناتا، الذي خبر الدنيا أكثر مما ينبغي لرجل دين، لم ينخدع.

ابتسم ابتسامة خفيفة، وقال في نفسه:

، ما أوسع الطرق إلى السماء، وما أضيق القلوب التي تسلكها. ،

كان يعرف، كما يعرف رهبان الدير جميعًا، أن هذه الكلمات ليست إلا مقدمة لدورة أخرى من الانغماس في الملذات، تليها صحوة زائفة، ثم عودة إلى الدير، ثم توبة مؤقتة، ثم سقوط جديد.

وكان يترجم كلمات الإمبراطور لتلاميذه بوضوح لا يخلو من مرارة :

، انتشروا في القرى... راقبوا... اختاروا بعناية... فالإمبراطور سيعود. ،

لم يكن في الأمر سر، بل كان طقسًا متكررًا، يختلط فيه المقدس بالمدنس، حتى لم يعد أحد يميّز بينهما.

X

وفي روما، حيث تُصاغ القرارات الكبرى، وتُبرر الخطايا باسم المصلحة العليا، كان البابا على علم بكل شيء.

جلس ذات يوم مع كبار الكرادلة، وقد وُضعت أمامه تقارير لا تخلو من الفضيحة.

قال أحدهم، بصوت منخفض :

، سيدنا، ما يفعله الإمبراطور... لا يليق. ،

رفع البابا يده، مقاطعًا، وقال ببرود :

، وهل يليق بالبروتستانت أن ينتشروا؟ وهل يليق بالمسلمين أن يقووا؟ ،

سكت الجميع.

ثم أضاف :

، دعوا الرجل وشأنه. ما يهمنا هو ما يفعله في ساحات القتال، لا في حجراته الخاصة. ،

وهنا تدخل كبير الكرادلة، وقد بدا عليه شيء من السخرية:

، ثم إن زوجته في القصر لا تترك له متنفسًا. أما في الدير... فليتنفس كما يشاء، ما دام يعود إلينا محاربًا لا مهادنًا. ،

ضحك البعض، بينما صمت آخرون، وقد أدركوا أن الحقيقة أفظع من أن تُقال.

X

في تلك اللحظات، كان العالم يتشكل من جديد، لا على أساس القيم، بل على أساس المصالح.

وكان الإنسان ذلك الكائن الذي قيل إنه خُلق على صورة الله يتحول إلى أداة، إلى رقم، إلى وسيلة في لعبة أكبر منه.

وفي قلب هذا المشهد، كان الصراع بين فرنسا وإنجلترا يشتعل، لا لأنه صراع حدود، بل لأنه صراع هوية.

إنجلترا، التي اختارت طريقًا مختلفًا، وخرجت من عباءة روما، أصبحت عدوًا لا يُغتفر.

وفي مجلس سري في باريس، دار حوار بين الملك ومستشاره:

، هل نحاربهم لأنهم خطر سياسي؟ ،

، لا يا مولاي... بل لأنهم خطر عقائدي. ،

، وهل العقيدة تُفرض بالسيف؟ ،

، في هذا الزمن، نعم. ،

سكت الملك، ثم قال بصوت خافت :

، إذن نحن لا نحمي الإيمان... بل نحمي سلطتنا باسمه. ،

X

وفي خضم هذا كله، كانت النفوس تتآكل.

كان شارلكان، في لحظة صفاء نادرة، يقف وحده في الدير، ينظر إلى الصليب، ويتمتم:

، يا رب... أيّنا يعبدك حقًا؟ أنا... أم أولئك الذين أقتلهم باسمك؟ ،

ثم ينهار، لا من التوبة، بل من العجز عن الفهم.

X

وهكذا، ظل العالم يدور في تلك الدوامة، حيث تختلط النيات، وتضيع الحقائق، ويصبح التاريخ نفسه رواية يكتبها المنتصرون، ويصدقها الجميع.

لكن الحقيقة، كما كانت دائمًا، ظلت كامنة في الصدور، تنتظر من يجرؤ على مواجهتها.

، ليس أخطر من كذبةٍ تُقال باسم الله، ولا أدهى من حربٍ تُخاض باسم السلام. ،

X

وفي النهاية، لم يكن الصراع بين فرنسا وإنجلترا، ولا بين فرنسا وإسبانيا، مجرد صراع دول، بل كان صراعًا داخل الإنسان نفسه.

بين ما يؤمن به... وما يفعله. بين ما يدّعيه... وما يخفيه. بين التاج... والصليب.

هنري الرابع
عقيدة الجمال بين الدم والعرش

مشهد تاريخي في ظلال فرنسا ما بعد سان بارثولوميو

تلك كانت إسبانيا، في القرن السابع عشر، تتهادى فوق منصة المجد الإمبراطوري كملكةٍ مهيبةٍ ترتدي عباءة الذهب والدم معًا؛ إمبراطورها يمدّ ظله من مدريد إلى البحار البعيدة، وسفنها المحمّلة بفضة العالم الجديد تشقّ المحيطات كأنها شرايين قدرٍ لا ينضب. كانت تُلقَّب بحامية الكاثوليكية، وسيف روما المصلت على رقاب الخارجين عن العقيدة، حتى خُيّل للمؤرخين أن الشمس لا تغيب عن سلطانها، ولا تخبو نار المذبح في كنائسها.

لكن التاريخ، ذلك الساحر الماكر، لا يعترف بعرشٍ بلا منازع.

فإذا رفعت إسبانيا راية الكاثوليكية، نهضت فرنسا من بين رماد مذابحها لتقول :**ها هنا مملكة أخرى تعرف كيف تصوغ المجد من الفوضى، وكيف تخلق الوحدة من الجراح .**

في إحدى القاعات الأكاديمية العتيقة، حيث تتدلى الثريات كعناقيد من ضوءٍ أصفر شاحب، وتغفو الكتب الجلدية على رفوف الزمن، ارتفع صوت، ، نبرته حادة كحد السكين، وعينها تلتمع بفضول الباحثة وجرأة المحاكِمة:

وماذا عن فرنسا؟ عن منافستها العنيدة على ذلك اللقب الشهير؟ عن المملكة التي أرادت هي الأخرى أن تكون حامية الكاثوليكية في العالم، المخلصة لبابا روما؟ ماذا عن هنري الرابع، الذي جلس على العرش بعد مذبحة سان بارثولوميو، رجلٍ قيل عنه إنه بلا عقيدة؟ كاثوليكي حينًا، بروتستانتي حينًا، ويهوديّ الهوى في نظر خصومه؟ ما رأيك يا مولانا فيما نُسب إليك؟

ساد الصمت لحظة، كأن الجدران نفسها أنصتت.

ثم انبعث صوت هنري الرابع، لا من قبرٍ ملكي، بل من عمق النص، من دهاليز الذاكرة، من بين سطور التاريخ التي لم تجفّ أحبارها بعد. جاء صوته مرحًا، ساخرًا، مضمّخًا بخبرة رجلٍ صافح الموت والنساء والملوك:

ماذا أقول، وقد أوجزتِ كل التهم التي وُجِّهت إليّ في حياتي؟

ابتسمت، في تحدٍّ فكريّ، وقالت:

ولا تزال تُوجَّه إليك بعد موتك بأجيالٍ وأجيال.

ضحك هنري، ضحكة خفيفة، لكنها كانت تحمل في باطنها تعب القرون:

يا ابنتي، قولي لكل من يسأل عني: إن هنري الرابع لم تكن عقيدته إلا الجمال.

هنا انفتح المشهد الداخلي للشخصية، وغاص السرد في نفسيته المضطربة؛ رجلٌ خرج من قلب المذبحة لا يحمل سوى غريزة البقاء، ثم تعلّم أن البقاء وحده لا يكفي، وأن العرش ليس إلا قناعًا آخر للرغبات البشرية.

كان هنري يُحدّث نفسه في مرآة روحه:

أأنا خائن العقائد، أم ضحية العقائد ؟ أأنا متقلّب، أم أن الزمن نفسه كان يتلوّن بي ؟ أيّ إيمانٍ يمكن أن يصمد حين تصير الكنائس مسالخ، ويصبح اسم الله كلمة سرّ للقتل ؟

ثم عاد صوته إلى القاعة:

لقد كنتُ من أمراء البروتستانت ليلة سان بارثولوميو، كنتُ من المطلوب ذبحهم. أتدرين إلى أين فررت؟

قالت، ، وقد انحنت بجسدها إلى الأمام كأنها تقترب من قلب الحكاية:

منك نستفيد، يا من سمّاك الناس في حياتك وبعد موتك سيد العشاق.

تنهد هنري، تنهد رجلٍ لا يزال في أنفه عالقًا دخان الشموع ورائحة الدم:

فررتُ إلى مخدع عدوتي اللدود، الكاثوليكية الأميرة مارجو.

عند اسم **مارجو** تبدلت نبرة السرد، وصارت اللغة أكثر شاعرية، أكثر رهافة، كأن التاريخ خلع درعه وارتدى ثوب الغرام.

كانت مارجو، في ذاكرته، امرأةً لا تشبه نساء البلاط؛ مزيجًا من الذكاء الملكي والأنوثة التي تعرف متى تكون رحمة ومتى تكون سلاحًا. كانت ليلة الهروب تلك أشبه بعبورٍ أسطوري من الموت إلى الحياة.

يقول هنري في حديثه الداخلي:

لم أنجُ بسيف، بل بنظرة. لم أهرب عبر ممرّات القصر، بل عبر قلب امرأة.

في تلك الليلة فهمت أن الجمال قد يكون أعدل من السياسة، وأرحم من اللاهوت.

وأضاف بصوتٍ خافت:

بعد ليلة غرامٍ عنيف، أعفتني من الذبح، بل وجعلتني ملكًا على فرنسا.

ثم صمت.

كان ذلك الصمت أثقل من الكلام؛ ففي أعماقه حزنٌ قديم، لأن النجاة التي صنعتها امرأة، أكملتها السياسة، ثم أفسدها الزمن.

ولسوء حظي، ماتت بعد سنوات قليلة.

قالها كمن ينطق باسم جرحٍ لم يلتئم.

ثم تابع:

بعدها انطلقتُ في حرية، أُرضي نزوعي إلى الجمال بكل أشكاله؛ في النساء، في الفن، في العمران، في التسامح، حتى في الدولة نفسها.

هنا تتجلى الشخصية نفسيًا بوصفها رجلًا ممزقًا بين اللذة والمسؤولية، بين رغبة الجسد وعبء التاج. لم يكن هنري عاشقًا للنساء فقط، بل عاشقًا لفكرة الانسجام نفسها، لذلك كان يرى في المصالحة بين المذاهب صورةً عليا للجمال السياسي.

قالت، :

إذًا فأنت لا تنكر ما نُسب إليك؟

أجابها بثقة رجلٍ خبر دهاء الاتهام:

أنا متهَم في كل ما تتهمونني به، نعم؛ لكن ليس لأنني بلا مبدأ، بل لأن مبدئي كان أوسع من أسوار الطوائف.

ثم نهض في النص كخطيب دولة، لا كعاشق فقط:

ـــلقد كانت سياستي الخارجية تتجه، في حزمٍ وثقة، إلى المصالحة العقائدية مع إنجلترا والأراضي الواطئة؛ مصالحة بين الكاثوليك والبروتستانت، وهو ما لم ترضَ عنه روما.

هنا يشتد التوتر الدرامي.

القاعة نفسها بدت كأنها انقسمت إلى معسكرين: معسكر الإيمان الجامد، ومعسكر العقل السياسي. أما هنري، فكان يقف في المسافة القاتلة بينهما.

في داخله دار حوار نفسي عميق:

أيعقل أن يكون السلام جريمة ؟ أكلما حاول ملك أن يطفئ نار التعصب، صبّوا الزيت باسم الرب ؟

ما أشقى الملوك حين يسبقهم وعيهم عصرهم.

ثم قال، بصوتٍ مبحوحٍ من مرارة النهاية:

فأعطت النور الأخضر لزوجتي لاغتيالي، وهذا ما حدث.

ساد صمتٌ مهيب.

كأن السرد نفسه انحنى أمام مأساة رجلٍ أراد أن يبني جسرًا بين الأديان، فدُفع ثمنًا لجسرٍ لم يحتمله زمنه.

وفي هذا الموضع، تسرّبت الحكمة العربية إلى النص كأنها صدى بعيد من تراثٍ آخر يفسر مأساة الغرب:

، رُبَّ ساعٍ لحتفِه وهو يَسعى ،

فكم من ملكٍ ظنّ أن السياسة تُروَّض بالعقل، فإذا بها تُدار بالخوف؟ وكم من رجلٍ آمن بالجمال خلاصًا، فإذا بالجمال نفسه يوقظه على هشاشة العالم؟

ثم أردف الراوي بصوتٍ أكاديميّ تأمليّ:

إن هنري الرابع لم يكن شخصية تاريخية عابرة، بل نموذجًا إنسانيًا بالغ التعقيد؛ رجلٌ ولد في زمن الانقسام الديني، فحاول أن يتجاوز

الطائفة إلى الدولة، والعقيدة إلى الإنسان، والعرش إلى الوطن. لذلك بقيت شخصيته مادةً خصبةً للدرس التاريخي والنفسي والاجتماعي معًا.

فمن الناحية النفسية، نرى رجلًا نجا من مجزرة، ومن نجا من المجازر لا يعود كما كان؛ تتغير بوصلته الداخلية، فيصبح أكثر تعلقًا بالحياة، وأكثر شغفًا بكل ما يثبت وجوده: الحب، الجمال، السلطة، الفن، والنساء.

ومن الناحية الاجتماعية، مثّل هنري نقطة تحوّل في فرنسا الخارجة من حروب الدين؛ إذ فهم أن الشعوب لا تعيش طويلًا على الكراهية، وأن الدولة التي تُبنى على الدم تظل عطشى إلى دمٍ جديد.

ولعل أبلغ ما يلخص روحه بيتٌ من الشعر العربي:

وما الحربُ إلا ما علمتم وذقتمُ وما هو عنها بالحديثِ المُرجَّمِ

لقد ذاق الحرب، وعرف أن العقائد حين تفقد بعدها الإنساني تتحول إلى مقصلة.

رفعت، رأسها أخيرًا، وقد خفّ في صوتها التحدي وحلّ محله التأمل:

إذن، لعل التاريخ ظلمك حين اختزلك في تهمة رجلٍ بلا دين؟

ابتسم هنري، ابتسامة باهتة كضوء الغروب على نوافذ قصر قديم، وقال:

بل لعل التاريخ أنصفني؛ لأنه لم ينسني.

ثم أضاف، كمن يسلّم خاتمة الدرس:

العقائد تصنع الأمم، نعم، لكن الجمال وحده هو الذي يجعلها جديرة بالبقاء.

وانطفأ الصوت.

غير أن أثره ظل معلقًا في هواء القاعة، كما تبقى رائحة الورق العتيق بعد إغلاق الكتب.

وهكذا، لم يكن هنري الرابع ملكًا متقلب العقيدة كما صوّره خصومه، بل إنسانًا خرج من مذبحة، وعاش بعقلية الناجي، وآمن بأن الجمال—في الحب والسياسة والتسامح—هو الصيغة الوحيدة الممكنة لنجاة الإنسان من وحشية التاريخ.

، إذا ضاقَ صدرُ المرءِ عن سرِّ نفسِه فصدرُ الذي يُستودَعُ السرَّ أضيقُ ،

أما صدر التاريخ، فكان واسعًا بما يكفي ليحفظ سره:

أن الملوك قد يحكمون بالسيف، لكن الذين يبقون في الذاكرة حقًا هم الذين حاولوا أن يحكموا بالقلب.

عرشٌ من رماد، وقلبٌ من لهيب:
سيرة هنري بين العشق والسياسة

قالت صديقتنا، وفي نبرتها تلك السخرية التي تشبه وخز الإبر المغطاة بالحرير:

، وماذا كانت مجهوداتك الواقعية لإجراء تلك المصالحة؟ ،

سؤالها لم يكن سؤالًا، بل محكمة كاملة انعقدت في جملة واحدة، قاضيتها امرأة، وشهودها التاريخ، والمتهم—رجلٌ ظنّ يومًا أنه يستطيع أن يصالح بين السماء والأرض، بين العقيدة والرغبة، بين القلب والتاج.

ساد الصمت لحظة، كأن الجدران نفسها توقفت لتصغي. كان هنري جالسًا، لا كملكٍ على عرش، بل كإنسانٍ يُستدعى من ماضيه للمساءلة. حدّق في الفراغ، كأنما يستخرج من ذاكرته أرشيفًا من القرارات، والخيبات، والدماء.

قال، بصوتٍ فيه بقايا مجدٍ وشيء من التعب :

، عقدتُ الزيجات ، نعم، عقدتُ ما استطعت من جسورٍ بين عالمين يتناحران منذ قرون. جمعتُ بين أمراء وأميرات البيت الملكي الفرنسي والبريطاني ، بين الكاثوليك والبروتستانت. كنتُ أظن أن الزواج—هذا الرباط الإنساني—قد يكون أقوى من السيف. ،

ثم ابتسم ابتسامة خفيفة، فيها مرارة الحكيم الذي تأخر عليه الفهم:

، وتمّ بعض ذلك ، كان آخرها زواج الأميرة الفرنسية شارلوت دورليان بولي عهد بريطانيا ، ،

هنا انخفض صوته، كأنما انكسر شيء داخله:

، لكن البحر ، البحر كان له رأيٌ آخر. ،

X

تقدّمت صديقتنا قليلًا، وقالت بنبرة أقل سخرية، وأكثر حدة:

، غرقت؟ ،

أجاب وهو يغمض عينيه، كأن الصورة لا تزال تطارده :

، غرقت سفينتها في المانش ، وغرقت معها آخر محاولة للسلام. ،

ثم فتح عينيه فجأة، وفيهما شيء من التحدي :

، فاتخذتها روما ذريعة، وقالوا بل صرخوا : السماء لا ترضى بأن يتزوج الكفرة بنساء المؤمنين. ،

تدخّلتُ، وقد شعرت أن الحوار بدأ يخرج من إطار التاريخ إلى عمق النفس:

، وهل كانت السماء هي التي رفضت؟ أم البشر هم من جعلوا السماء تتكلم بأصواتهم؟ ،

نظر إليّ هنري طويلًا، كأن السؤال أصابه في موضعٍ لم يكن مستعدًا للدفاع عنه.

ثم قال ببطء :

، يا بني ، البشر لا يكتفون بأن يخطئوا، بل يُصرّون أن يجعلوا الله شاهد زور على أخطائهم. ،

هنا ضحكت صديقتنا، لكنها لم تكن ضحكة خفيفة، بل ضحكة مشبعة بالاتهام:

، وماذا عن زوجتك؟ تلك التي تسميها دون مواربة البقرة الإيطالية ؟ ، !

تغير وجه هنري. لم يغضب ، بل بدا كمن أُجبر على فتح جرحٍ قديم.

قال: ماري مديتشي ، نعم ، كانت ،

توقف، كأنه يبحث عن كلمة أقل قسوة، فلم يجد.

، كانت صفقة سياسية. لا أكثر. ، .

ثم أضاف، بصوتٍ خفيض:

، لكنها لم ترَ نفسها كذلك ، رأت نفسها ملكةً بحق ، ورأت فيّ رجلًا يجب أن يُروّض. ،

هنا بدأ الحوار يتحول إلى مسرحٍ نفسي، حيث لم تعد الكلمات تُقال، بل تُنتزع من الأعماق.

قالت صديقتنا:

، وهل كانت خائنة؟ أم أنت من خُنْت ؟ ،

ابتسم هنري ابتسامة متعبة:

، الخيانة يا آنسة ، ليست دائمًا جسدًا يغادر سريرًا إلى آخر ، أحيانًا تكون روحًا لم تحضر من الأساس. ،

ثم أضاف:

، أنا لم أحبها ، وهي لم تفهمني ، وبين هذا وذاك، وُلدت الكارثة. ،

سكت قليلًا، ثم قال فجأة:

، اشترت رافياك ليقتلني. ،

ارتجف الهواء.

، رجلٌ بسيط، متعصب، يظن أنه ينفذ إرادة السماء ، بينما كان في الحقيقة أداة في يد امرأة شعرت أن وجودي يهدد سلطتها. ،

قالت صديقتنا، وقد خفتت نبرتها:

وتتهمها؟ بعد موتك؟ ،

أجاب بهدوء غريب:

، لا أتهم ، أنا فقط ، أروي. ،

ثم أضاف، وكأنه يهمس لنفسه:

العجيب ، أنها وضعت ابنتي بعد موتي بشهرين ، هنريت ماري

هنا ارتسمت على وجهه ابتسامة لم نرَ مثلها من قبل ابتسامة أبٍ، لا ملك.

طفلة ، لم ترني ، لكنني أراها في خيالي دائمًا ، ،

تدخلتُ، وقد شعرت أن الحوار بلغ منطقة شديدة الحساسية:

أتظن أننا جئنا من أجلها؟ ،

نظر إليّ، نظرةً نافذة:

أظن ذلك ، بل أكاد أجزم ، أنكما لم تدخلا هذا الحوار إلا من أجلها. ،

قلت ساخرًا، محاولًا كسر ثقل اللحظة:

معذور ، بنفس أعذار شارلكان. ،

انتفض هنري، وكأن الاسم لسعه:

أعوذ بالله! شارلكان؟! ،

ثم اعتدل في جلسته، وعاد إليه شيء من كبرياء الملوك:

كان سيد الفاسقين ، أما أنا ،

وتوقف لحظة، ثم قال بنبرة فيها اعتداد:

، أنا سيد العشاق. ،

ضحكت صديقتنا، لكنها هذه المرة لم تُخفِ احتقارها:

، بل سيد الأعذار ، الفسق هو الفسق، تحت أي مسمى. ،

سكت هنري ، لكن صمته لم يكن هزيمة، بل كان أشبه بانسحابٍ تكتيكي إلى أعماق النفس.

ثم قال:

هناك فرق ،

رفع رأسه، ونظر إليها مباشرة:

شارلكان كانت زوجته جميلة ، لكنه خانها بلا سبب ، أما أنا ،

هنا تغيّر صوته، وصار أقرب إلى الاعتراف:

، أنا فقدتُ مارجو. ،

وهنا، لأول مرة، بدا أن الاسم وحده يكفي ليُسقط كل أقنعته.

مارجو ،

كررها، كأنها صلاة.

كانت الجمال ، والذكاء ، والرشاقة ، والحنان ، كانت امرأةً تُشبه الحياة حين تكون كريمة. ،

ثم أطرق رأسه:

فلما ماتت ، مات شيءٌ في داخلي ، شيءٌ لم يستطع تاجٌ ولا جيش أن يعوضه. ،

قال، وكأنه يصف سقوطه بوعي كامل:

ثم جاءت ماري ،

تنهد:

فكان الفرق بينهما ، كالفرق بين الربيع والطين. ،

ثم، فجأة، عاد إليه ذلك الأسلوب الساخر القاسي:

، إذا جلست إلى المائدة ، قشت كل ما عليها ، كالبقرة السمينة ،

لكن صوته بدأ يخفت ، وكأن الكلمات نفسها تخجله.

ورغم العطور ، كان يفوح منها ، شيءٌ ، ،

توقف.

ثم قال، بصوتٍ منخفض:

ليس في الجسد ، بل في الروح. ،

هنا، ساد الصمت من جديد.

لكن هذه المرة، لم يكن صمتًا ثقيلًا ، بل كان صمتًا ممتلئًا بالمعاني.

قالت صديقتنا، بهدوء لم نعهده فيها:

أتعلم ، مشكلتك ليست في النساء ، بل في أنك تبحث فيهن عن امرأة واحدة. ،

رفع هنري رأسه ببطء.

مارجو؟ ،

قالت:

نعم ، وكل امرأةٍ بعدها كانت تُقاس بها ، فتخسر ، وتخسرك.

ابتسم هنري ، لكن ابتسامته كانت هذه المرة مختلفة ابتسامة رجلٍ فهم أخيرًا سبب هزائمه.

وقال:

قال الشاعر:

وما الحبُّ إلا للحبيبِ الأولِ وما الشوقُ إلا للذي كان في القلبِ

ربما ، كنتُ أحارب العالم ، وأنا في الحقيقة ، كنتُ أحارب غيابها. ،

ثم نظر إلينا، وقال:

أما السياسة ، فليست إلا ستارًا ، نُخفي خلفه فوضانا الداخلية.

وأردف، بصوتٍ عميق:

قال الحكماء:

من لم يملك نفسه، ظنّ أنه يملك العالم. ،

نهض ببطء، كأن الحوار أنهكه.

ثم قال:

، اكتبوا ما شئتم ، قولوا ما شئتم ، لكن لا تنسوا ،

وتوقف، ثم أكمل:

أن الملوك ، ليسوا إلا بشرًا ، لكنهم يدفعون ثمن إنسانيتهم ، أضعافًا مضاعفة. ،

X

وفي تلك اللحظة، بدا لي أن التاريخ كله ليس سوى سلسلة من القلوب المكسورة ، التي حاولت أن تُخفي كسورها خلف التيجان.

وأن هنري ، لم يكن ملكًا بقدر ما كان ، رجلًا أحب ، ولم ينجُ.

على عتبات العرش والنار
حكاية الخيانة والعرش في زمن الدم والإيمان

تلك كانت سِمةُ العصر؛ عصرٌ إذا ابتسمت فيه السياسةُ أظهرت أنيابها، وإذا تعطّرت فيه المجالسُ بالفاكهة والورد، فسرعان ما كان عبيرُها ينقلب إلى رائحة بارودٍ وصلواتٍ دامية.

وكان حسنُ الذوق يومئذٍ تهمةً لا فضيلة؛ فمن يختَر أطايبَ الثمر لا طوبَ الأرض، لا بدّ أن يُتَّهَم بأنّه يترفّع عن العامة، أو أنّه يُخفي وراء رهافة الحسّ قسوةَ التدبير.

قلتُ، وأنا أُقلِّب بصري في وجوه الجالسين حول الموقد الحجري، حيث كانت النار تُلقي بظلالها الراقصة على الجدران العتيقة:

لهذا استأجرتَ زوجتك لقتلك، يا رافايـاك؟

ساد الصمت لحظة، كأنّ السؤال سيفٌ هبط دفعةً في قاعةٍ مكتظةٍ بالأسرار.

ثم رفع هنري رأسه، وفي عينيه بريقُ رجلٍ أنهكته الخيانة حتى ألفها، وقال بصوتٍ ثقيلٍ كأنّه صادرٌ من قاع قبر:

كنتُ أعرف أنّها ستفعل ذلك يومًا ما ، بتحريضٍ من روما.

لم يكن في نبرته غضب، بل كان فيها ذلك الرضى المرّ الذي يبلغه الإنسان حين تتجسّد مخاوفه القديمة واقعًا.

إنّ أسوأ ما في المصائب ليس وقوعها، بل أن تكون قد عاشت طويلًا في مخيّلتك قبل أن تقع.

قلتُ وأنا أقترب من ظلاله:

ولماذا، يا صاحب الجلالة، يا هنري الرابع، ملكَ العشّاق والعهود المنكوثة؟ أَلِخِياناتك المتكرّرة؟

ابتسم ابتسامةً واهنة، ومرّت على شفتيه سخريةُ الملوك الذين خبروا النساء كما خبروا الحروب.

الخيانة يا صديقي لا تبدأ في القلب، بل تبدأ في السياسة. القلوب ليست إلا ساحاتٍ صغيرة تعكس حروبَ الممالك الكبرى.

عندها تدخّل لورد بكينغهام، وكان جالسًا في طرف المجلس، يضمّ رداءه المخملي حول كتفيه كأنّه يضمّ حوله أسرار البلاط الإنجليزي كلّها.

قال في تؤدةٍ الواثق:

أحسب أنّ خيرَ من يحدّثنا بقصّتها المثيرة هو مؤرّخ هذه المرحلة من تاريخ أوروبا، المرحلة التي سمّاها الناس ، حرب الثلاثين عامًا ، ، الأستاذ هنري ستيريد، عميد أكسفورد السابق.

ثم التفت نحوي، كأنّه يدفعني إلى هاوية السرد دفعًا، وقال:

حدّثنا عن المرأة، لا بوصفها امرأةً فحسب، بل بوصفها قَدَرًا تكسّر عليه عروشٌ وصلبان.

تنفّستُ ببطء، وشعرتُ أنّ القاعة تضيق بما فيها من أسماء: روما، مدريد، لندن، باريس ، كلها كانت تتزاحم في الهواء كأشباحٍ تبحث عمّن يمنحها صوتًا.

قلت:

من أجلها ، ومن أجل تلك الصغيرة الجميلة الأنيقة، التي حرمها سيّدُ روما من العرش البريطاني تنفيذًا لسياسته في قهر البروتستانت حيثما كانوا، سالت دماءٌ لم تجفّ بعد. لعلّك علمت، وأنت في سَقَر، بأن ابنتك هذه كانت ذات يوم اللعبةَ التعسة في يد زوجتك؛ لا من أجل عقد المصالحة الذي قُتلتَ بسببه، بل من أجل كَثلكة بريطانيا نفسها.

هنا انطفأ شيءٌ في عيني هنري، أو لعلّ النار هي التي خفتت.

تابعتُ:

كانت روما لا تزال تُلحّ على ملك إسبانيا، وعلى الملكة الوصية على عرش ولدها الصغير لويس الثالث عشر، أن يُغريا ملوك بريطانيا باعتناق الكاثوليكية. لم يكن الأمر دينًا خالصًا، بل كان خريطةً تُرسم بالصلوات والسموم والزواجات الملكية.

قال هنري، كمن يستعيد بمرارةٍ درسًا قديمًا:

والشعوبُ على دين ملوكها.

ثم أطرق قليلًا وأضاف:

كانت بريطانيا تحكمها أسرة ستيوارت، وعلى عرشها جيمس ستيوارت. أمّه كانت كاثوليكية، فهو كاثوليكيّ الهوى، وإن بقيت عقيدته الرسمية بروتستانتية. ما أصعب أن يُمزَّق الملك بين ما يؤمن به قلبه وما يفرضه عليه تاجه.

رفعتُ بصري إلى الرجل الجالس في صدر القاعة، حيث كان جيمس الأول يراقبنا بصمتٍ بارد، ذلك الصمت الذي لا يملكه إلا من تعلّم أن يُخفي دولته في ملامحه.

قلتُ:

ما رأيك فيما يقول هنري الرابع، يا صاحب الجلالة جيمس الأول، ملك بريطانيا ؟

طال الصمت. حتى خُيّل إليّ أنّ التاريخ نفسه يحبس أنفاسه.

ثم قال جيمس، بصوتٍ عميقٍ فيه رنّة الفولاذ:

الملك ليس رجلًا حرًّا. إنّه سجينُ نسبه، وأسيرُ جغرافيته، وعبدُ توازناتٍ لا يراها العامة. أردتُ السلام، لكنّ السلام في أوروبا كان يومئذٍ أمنية شاعر، لا مشروعَ ملك.

وسكت لحظة، ثم أردف:

كنتُ أعلم أنّ روما تريدني قلبًا قبل أن تريدني تاجًا. لكنّ إنجلترا لم تكن تحتمل أن يُبدّل ملكُها عقيدته، لأن العقيدة كانت يومها اسمًا آخر للسيادة.

في تلك اللحظة، بدا لي أنّ الرجل لا يتكلّم معنا، بل مع نفسه؛ مع ذلك الصبيّ الذي تربّى بين أمٍّ كاثوليكية وعرشٍ بروتستانتي، بين ضميرٍ يميل إلى التسامح وسيفِ دولةٍ لا ترحم.

وغصتُ في نفسيته كما يغوص الغوّاص في بحرٍ أسود:

كان جيمس يخاف أكثر ممّا يُظهر. يخاف من أن يكون ضعيفًا في نظر شعبه، ويخاف من أن يكون خائنًا في نظر ضميره.

كان يعرف أنّ الملوك لا يُحاسَبون على نواياهم، بل على نتائج خطواتهم.

إذا مال التاجُ قليلًا، سقطت الرؤوس كثيرًا ، هكذا كان صوته الداخلي يهمس.

ارتجف هنري، ثم قال بصوتٍ شارد:

أتدرون ما أقسى ما في الخيانة؟ ليس أن يطعنك عدوّك، بل أن يجيء الخنجر من اليد التي شاركتك الخبز والوسادة.

ثم غرق في حواره الداخلي، كأنّه يسمع صدى زوجته في أروقة الذاكرة:

أكنتُ أحبّها؟ أم أحببتُ صورتي في عينيها ؟ أكنتُ ملكًا حقًّا، أم مجرّد رجلٍ أضاع قلبه بين نساء البلاط ورسائل السفراء ؟ ،

كان يتذكّر وجهها؛ وجهًا جمع بين رقة الأنثى وبرودة المبعوث السياسي .في عينيها كان يرى نفسه، لا كما هو، بل كما تريد روما أن يكون: ملكًا مطواعًا، يمكن دفعه إلى حربٍ أو مصالحةٍ أو زواجٍ بجرعة عاطفة.

قلت له:

ربّما لم تكن المرأةُ خائنة ، بل كانت ابنةَ عصرها. في ذلك الزمان كانت النساءُ في القصور رسائلَ دبلوماسية تمشي على قدمين.

فقال بمرارة:

كلّنا أبناء عصرنا، لكن بعضنا يملك شرفَ الرفض.

ثم أضاف، كأنّه يوقّع اعترافه الأخير:

لقد خنتُ كثيرًا، نعم ، لكنّي لم أخن فرنسا.

هنا ارتفعت عينا جيمس، وفيهما بريقُ مَن فهم المعنى الأعمق.

قال:

وهكذا يبدأ سقوطُ العروش: حين يختلط الخطيئةُ الشخصية بالمصير العام.

كان خارج القصر المطرُ ينهمر على النوافذ الزجاجية كأنّ السماء نفسها تكتب مرثيةً لتلك الأزمنة.

وأحسستُ أنّ حرب الثلاثين عامًا لم تكن حربَ طوائف فحسب، بل حربَ نفوسٍ مأزومة: ملوكٌ خائفون، كهنةٌ طامعون، أمراءُ دمٍ، وعشّاقٌ حوّلوا القلوبَ إلى خرائط.

قلتُ أختم الرواية:

إنّ الصغيرة التي حُرمت العرش لم تكن سوى رمز. ففي كلّ جيلٍ تُولد أميرةٌ يسلبها الكبار حقّها باسم العقيدة أو المصلحة. وما العرش إلا كرسيّ مرتفع، أمّا المأساة فدائمًا إنسانية.

فأطرق الجميع.

ثم قلت، كمن يسلّم الحكمة الأخيرة إلى الزمن:

مَن جعلَ الدينَ جسرًا للسياسة عبرتْ عليه الجيوشُ إلى الخراب ومَن جعلَ القلبَ رهينةَ العرش خسرَ الحبَّ والملكَ معًا

وأخيرًا نهض جيمس، واتجه إلى النافذة، وقال بصوتٍ خافت:

لعلّ التاريخ لا يذكر ما شعرنا به، بل ما فعلناه. تلك هي قسوة الخلود.

فأجبته:

لكن الأدب يا مولاي يفعل؛ إنّه يُنقذ ما ضاع من داخل النفوس، ويمنحُ للصمت لسانًا، وللندم حياةً ثانية.

وهكذا انطفأ المجلس، وبقيت الكلمات معلّقةً في سقف القاعة كشموعٍ لا تنطفئ:

الخيانة، الإيمان، العرش، الحب، روما، الدم ، كلّها لم تكن إلا أسماءً أخرى للإنسان، حين يُمتحَن بين ما يريد وما يجب.

عرشٌ بين الصليب والتاج
حكاية جيمس الأول بين هوى العقيدة ودهاء السياسة

في تلك القاعة العتيقة التي تضوع منها رائحة الورق العتيق، وتتماوج على جدرانها ظلال المصابيح كأنها أشباح الملوك الغابرين، جلس الأستاذ **ستريد** بين تلامذته، ككاهنٍ يتهيأ لطقسٍ من طقوس استدعاء التاريخ.

كان الليل يهبط على المدينة بطيئًا، وتحت زجاج النوافذ المرتجف كانت الريح تعزف أنينًا خافتًا، كأن بريطانيا نفسها تستعيد ذكرى قرونٍ من الدم والدين والعرش.

تنحنح الأستاذ، ثم شبك أصابعه، وقال بصوتٍ مهيب تتخلله نبرة الراوي العارف بأسرار النفوس:

، في قصتنا هذه، يا أبنائي، ثلاثةُ رجالٍ تتشابك عند أقدامهم خيوط القدر: الملك جيمس الأول، وولي عهده الأمير شارل، وذلك الوزير الفاتن الخطر، لورد بكينغهام. ولكن قبل أن نحكم على الأفعال، علينا أن ننفذ إلى الأرواح. ،

ساد الصمت، وانحنت الوجوه في لهفةٍ صامتة.

X

الملك العجوز: روحٌ ممزقة بين المذبح والعرش

قال الملك جيمس العجوز، وصوته يخرج متثاقلًا كأنما يجر خلفه سلاسل عمرٍ طويل من الخيبات:

كنتُ كاثوليكيَّ الهوى، نعم ، ولكنني كنتُ أعرف شعبي. لم يكن البريطانيون ليتورعوا عن خلعي، بل ربما خلعوا رأسي عن كتفي، لو أنا وافقتُ على تشييد كنيسة كاثوليكية واحدة في أرجاء المملكة، ولو كانت مجرد بيعةٍ في بيتٍ منعزل.

لذلك كنتُ دائمًا أوصي ولدي شارل، وأوصي رئيس وزرائي الشاب لورد بكينغهام، ألا يتزوجا كاثوليكيةً أبدًا.

ثم سكت لحظة، وغاص بصره في الفراغ.

كان في أعماقه صراعٌ لا يهدأ؛ صراعُ رجلٍ نشأ بين إرث أمٍ كاثوليكية متعصبة، وواقعِ أمةٍ بروتستانتية لا ترحم.

كان يشعر أن الإيمان شيء، وأن الحكم شيء آخر.

في داخله كان صوت أمه **ماري ستيوارت** يهمس:، العرش لا يقوم إلا بحماية العقيدة. ، لكن صوت الرعية كان أشد قسوة:، العرش لا يقوم إلا بحماية البقاء.

وهنا تجلت نفسيته في أعمق صورها:

ملكٌ لا تحكمه قناعاته بقدر ما تحكمه ذاكرة الخوف.

ولعل الحكمة العربية تصدق عليه:

إذا لم تستطع شيئًا فدعهُ وجاوزهُ إلى ما تستطيعُ

فهو لم يكن جبانًا بقدر ما كان أسيرًا لذاكرة الدم التي سالت في أوروبا باسم الدين.

X

رفعت إحدى الحاضرات رأسها، وقالت بنبرةٍ لا تخلو من تحدٍّ:

ومع هذا فقد خالفتَ أفعالك أقوالك يا ملك بريطانيا ! ألم ترسل ولي عهدك مع لورد بكينغهام إلى إسبانيا ليخطب ابنة مليكها ؟

ارتعشت شفتا الملك في ابتسامةٍ باهتة، كابتسامة شيخٍ أرهقته المبررات، ثم قال:

لأسبابٍ سياسية، لا لأسبابٍ عقائدية. وشاهدي في ذلك لورد بكينغهام نفسه. قل لهذين الحقيقة يا لورد.

نهض لورد بكينغهام، ذلك الشاب الوسيم الذي كانت كلمته لا تُرد عند الملك. في ملامحه بريقُ ذكاءٍ خطير، وفي ابتسامته شيءٌ من سحر الثعالب.

قال بصوتٍ رخيم:

صدق مولانا الملك يا أختاه. كان زواج ولي العهد، صديقي شارل، من ابنة ملك إسبانيا يعني أن ترث بريطانيا التركة الإسبانية كلها.

ومع هذا، فرغم تحذيري لجلالة الملك من خطورة زواج ولي العهد البروتستانتي بكاثوليكية، فقد كان حرصه على التركة أقوى من حرصه على العقيدة.

ثم مال قليلًا، وكأنه يخاطب نفسه أكثر مما يخاطبهم:

ما السياسة إلا فنٌّ أن تمنح الناس وهمَ المبادئ، بينما أنت تسوقهم إلى مصالحك. ،

كان بكينغهام في أعماقه رجلًا يفهم هشاشة الملوك. يعرف أن الشيخوخة تجعل الإنسان أكثر تعلقًا بما يتركه بعد موته: إرثًا، أمجادًا، أو حتى وهم انتصار أخير.

وفيه تصدق الحكمة: **من أمِنَ العواقبَ أساء الأدب**

X

رحلة إسبانيا: الطريق إلى الوهم الذهبي .

سألت، في شغف:

وذهبتما إلى إسبانيا خاطبين؟

ابتسم بكينغهام، واتسعت عيناه ببريق المغامرة:

ولهذه الرحلة قصةٌ مثيرة ، أتحبان أن تستمعا إليها؟

قال الأستاذ ستريد وهو يلتقط الخيط السردي كمن ينتشل جوهرة من بحر:

لقد كانت تلك الرحلة يا أبنائي أشبه بملحمةٍ درامية؛ أميرٌ شاب يطارد مجدًا سياسيًا، ووزيرٌ يرى في الطريق إلى مدريد فرصةً لنسج قدر أوروبا. ،

خرج شارل وبكينغهام متنكرين، كأنهما بطلان من روايةٍ فارسية قديمة. كان الطريق طويلًا، تعبره عربات الخيل بين غاباتٍ كثيفة وقرى يغطيها الضباب.

وفي الطريق، كان شارل غارقًا في حواره الداخلي:

هل أنا ذاهبٌ لأجل الحب ؟ لا ، لم أرها بعد. هل أنا ذاهبٌ لأجل العرش ؟ نعم ، وربما لأجل إثبات أنني لستُ ظلَّ أبي. .

هنا يتجلى البعد النفسي للشخصية الرئيسة:

الأمير لا يسعى إلى الزواج، بل إلى التحرر من سلطة الأب، وإثبات الذات في قارةٍ تتقاذفها المصالح.

X

الأستاذ ستريد يعود إلى الجذور: من أين جاء جيمس ؟

تنحنح الأستاذ ستريد، ثم قال:

ولكن قبل مدريد، لا بد أن نعود إلى الجذور. هل تعرفون من كانت أم جيمس ؟ ومن كان أبوه ؟ .

قالت إحدى الحاضرات ، في محاولةٍ للفرار من رهبة السؤال:

هيا يا صديقتنا العزيزة، أنتِ خيرُ من يتصدى لهذه الأسئلة التي تشبه مسابقات التلفاز السطحية ! .

فقالت الأخرى:

أمه، فيما أذكر يا أستاذ، كانت ماري ستيوارت. ،

هز المؤرخ رأسه في رضا:

تمامًا ، الكاثوليكية المتعصبة، ملكة اسكتلندا، التي أرادت أن تُرغم الشعب البريطاني على اعتناق الكاثوليكية، وأن تطرد مليكته ابنة عمها إليزابيث الكبرى، فدفعت حياتها ثمن هذه الحماقة.

هنا خيم صمتٌ ثقيل، كأن الجميع رأى طيف ماري وهي تسير نحو المقصلة.

X

ماري ستيوارت: الأم التي أورثت ابنها الخوف

قالت :

وأبوه كان الفتى المدلل لورد دارنلي، الذي قتلته ماري في أول حادثة نسفٍ شاملة في التاريخ؛ نسفته بقصره، وبكل من كان فيه، في ليلةٍ لا تُنسى. ،

أطرق الأستاذ برأسه، وقال:

نعم ، ومن تلك الليلة وُلد في نفس جيمس شعورٌ دفين بأن العروش لا تُورث المجد فقط، بل تورث الرعب أيضًا.

لقد نشأ جيمس طفلًا في ظل أمٍ أعدمت، وأبٍ قُتل في مؤامرة، وبلادٍ تمزقها الطوائف.

لهذا لم يكن حبه للكاثوليكية حب عقيدة خالصة، بل حنينًا نفسيًا إلى الأم المفقودة، ومحاولةً لا واعية للاتصال بجذرٍ قُطع بالدم.

لكن ماري كانت مدرسةً في المأساة، فخرج ابنها تلميذًا للخوف السياسي.

X

بين الإنسان والملك

رفع الأستاذ ستريد بصره إلى طلابه، وقال في نبرةٍ مفعمة بالشاعرية:

تذكروا دائمًا أن التاريخ ليس أخبار ملوكٍ فحسب، بل هو علمُ النفوس حين تلبس التاج. ،

ثم أضاف:

كان جيمس يحب الكاثوليكية كما يحب الابن ذكرى أمه ، ويخاف منها كما يخاف الملك مقصلة شعبه. وبين الحب والخوف، ضاع الرجل، وارتبك العرش. ،

وخارج النوافذ كان الليل قد اكتمل، وبدا القمر فوق السماء البريطانية شاحبًا كوجه ملكٍ عجوز، أدرك متأخرًا أن أعظم الحروب ليست بين الأمم، بل داخل القلب نفسه.

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوًّا له ما من صداقته بدُّ

وهكذا بدأت الحكاية ، حكاية ملكٍ أراد أن يجمع بين الصليب والتاج، فوجد نفسه ممزقًا بينهما.

تاجٌ بين الصليب والضمير
حكاية جيمس وشارل وبكينام في دهاليز العرش والروح

قال المؤرخ، وقد أرخى الليل على مجلسه ستائر السكون، وأوقدت الشموع حوله ظلالًا ترتجف على الجدران كأنها أرواح الماضين:

هنا تبدأ الحكاية، لا من فوق العرش، بل من قلب طفلٍ صغيرٍ أُخذ من حضن أمه إلى حضن المملكة.

كان **جيمس** يومئذٍ صبيًا غضًّا، لم يشتد عوده بعد، تتنازعه براءة الطفولة وهيبة القصور. أخذته الملكة إليزابيث إليها، لا ككفيلةٍ بطفلٍ يتيم المصير، بل كصانعةٍ لملكٍ تُعِدُّه الأيام لمحنة التاج. ربّته على أدب الملوك؛ علّمته كيف تكون النظرة وعدًا، والصمت قرارًا، والابتسامة سياسة، والدمعة ضعفًا لا يليق إلا بالوحدة.

نشأ الفتى في أروقة القصر بين المعلّمين ورجال الدين، يسمع تراتيل البروتستانت في الصباح، ويقرأ تاريخ الدم الذي سال على مذابح العقيدة في المساء. كان يتعلم أن الملك ليس رجلًا واحدًا، بل أمةً تمشي على قدمين، وأن قلبه مهما خفق لهوى شخصي ليس ملكه وحده.

فلما ماتت إليزابيث سنة **1702**، انفتح باب القدر على مصراعيه، وأفاقت بريطانيا على ملكٍ جديد يحمل في عينيه هدوء البحر، وفي صدره عاصفةً من الأسئلة. جلس جيمس على العرش، والتاج فوق رأسه لم يكن ذهبًا خالصًا، بل كان خليطًا من المجد والدم والندم.

لقد نشأ بروتستنتيًا كما شاء له القصر، **غير أن ذاكرة الأم لا تموت** .كانت أمه كاثوليكية، وظل وجهها يسكن أعماقه مثل أيقونةٍ

خافتة الضوء، كلما خلا إلى نفسه عاد يسمع صوتها، ويرى يديها، ويشمّ عبير صلواتها القديمة.

وفي أعماقه كان صراعٌ نفسي مرير:

هل يكون وفيًّا للمرأة التي أنجبته ؟ أم وفيًّا للأمة التي تبنّته ؟

وفي ليلةٍ مطيرة، حين كانت الرياح تعصف بنوافذ القصر كأنها رسل قدرٍ غاضب، وصلته رسالة سرية من **بابا روما** .فضّ ختمها بيدٍ ثابتة، لكن قلبه اضطرب. جاء فيها ما معناه:

انتقم لمصرع أمك، وأعد بريطانيا إلى حضن الكاثوليكية.

طال طويلًا نظره إلى الحروف، كأنها سهامٌ تتجه إلى جرحٍ قديم لم يندمل. هنا بدأ الحوار الداخلي العنيف في نفسه:

جيمس (في سره) :

أأنتقم لأمي فأمزق شعبي ؟ أأرضي قلبي فأشعل حربًا في أرواح الملايين ؟ ما قيمة البرّ بالأم إذا صار خنجرًا في خاصرة الوطن ؟

ثم نهض، ومشى في القاعة وحده، يلامس بأصابعه أعمدة الرخام الباردة، كأنه يستمد منها صلابة القرار. قال لنفسه بصوتٍ خافت:

ليس الملك من يملك هواه، بل من يملك هواه فلا يملكه.

وفي الصباح، أهمل الرسالة، وطواها كما تُطوى نار الفتنة قبل أن تشتعل. لم يكتفِ بذلك، بل أبى أن ينشئ في بريطانيا كنيسة كاثوليكية واحدة، لا عداءً لعقيدةٍ، بل حفاظًا على وحدة شعبٍ أنهكته الانقسامات.

وكان يقول في مجلسه:

إذا انقسمت القلوب ضاع الملك، وإذا ضاع الملك سال الدم. ،

هنا سكت المؤرخ قليلًا، ثم رفع رأسه وقال:

هذه هي الشخصية الأولى؛ ملكٌ مزّقته الذاكرة، لكن أنقذه الضمير. فمن صاحب الشخصية الثانية ؟

ثم مال بجسده إلى الأمام كأنما يُسرّ بسرٍّ ثمين:

إنه ولي العهد، ولده شارل.

كان **شارل** فتىً رومانسيًّا مهذبًا، كأن الفروسية القديمة بُعثت في ملامحه. لم يكن ينظر إلى الناس من علٍ، بل كان يرى في كل إنسان روحًا تستحق الاحترام. إذا حدّث أحدًا—مهما صغرت منزلته—أطرق بعينيه أدبًا، وأنصت بوجهه كله، كأن المتحدث وحده هو العالم.

كان يخاطب الجميع : **سيدي** ، و سيدتي ، من أصغر خادم في القصر إلى الوزير الأول. من الخادمة التي تقدم له الشراب إلى وصيفته الخاصة **ليدي أشفور**، ومن حارس الباب إلى قائد الجيش.

وكان في هذا الأدب شيءٌ من فلسفته النفسية؛ إذ كان يرى أن السلطة امتحانٌ للأخلاق لا امتيازٌ عليها.

قال شارل يومًا لوالده في حوارٍ داخليٍ صادق:

يا أبي، أخشى أن يصير التاج جدارًا بيني وبين الناس. ،

الملك جيمس:

بل اجعله جسرًا يا بني.

ظلّت هذه العبارة تسكنه. لذلك كان يقول عن اللورد بكينام:

كنت أخاطب لورد بكينام بسيدي اللورد أمام الناس جميعًا، فإذا خلوت به قلت: صديقي العزيز، فينادني: أخي الحبيب. ،

في نفس شارل كانت رومانسية عجيبة؛ لم تكن رومانسية النساء والخمر، بل رومانسية الصداقة والشرف والأحلام الكبرى. كان يحلم بإنجلترا قوية، عادلة، يأنس فيها الفقير قبل النبيل، ويجد الجندي فيها معنىً للموت غير الطاعة العمياء.

وكان إذا خلا إلى نفسه عند الشرفة المطلة على حدائق القصر، حدّث روحه قائلًا:

هل أنا ابن العرش، أم ابن الفكرة التي سيحملها العرش بعدي ؟ أيُذكر الملك باسمه، أم بما تركه في قلوب الناس ؟

وكان كثيرًا ما يردد بيتًا عربيًا تُرجم له فأحبه:

وإنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتْ فإن همُ ذهبتْ أخلاقُهم ذهبوا

X

قال المؤرخ:

وهذا يجرنا إلى الشخصية الثالثة، أكثرهم إثارةً للجدل، وأشدهم حضورًا في مسرح السياسة: لورد بكينام.

دخل **بكينام** التاريخ كما يدخل الممثل البارع خشبة المسرح؛ واثق الخطوة، مشبعًا بالكاريزما، تتبعه الألقاب كما تتبع الظلال أصحابها. كان الوزير الأول للمملكة، حامل أرفع الأوسمة، القائد العام للجيش، وأدميرال البحرية، ومستشار الملك الخاص، ومهندس السياسة البريطانية في تلك الحقبة المضطربة.

قال بكينام، ضاحكًا في مجلسٍ خاص، وفي عينيه بريق ذكاءٍ لا يهدأ:

أنا لورد بكينام، وزير المملكة، وصاحب أعظم ألقاب الدولة، والصديق العزيز لولي العهد، والابن المدلل للملك جيمس.

فقالت إحدى السيدات مازحة:

ماذا ؟ أنت أيضًا لست من الأبناء الشرعيين ؟

فضحك ضحكةً شكسبيرية الطابع، فيها خفة المسرح وعمق الحياة، وقال:

كلا يا آنسة، لقد ذهبتِ بعيدًا. أنا من أسرةٍ شريفةٍ عفيفةٍ خدمت التاج طويلًا، غير أن مليكي كان يثق بي ويحبني كما يحب ولده وولي عهده، صديقي شارل. كنت أخاطبه: أبي الملك، وكان يقول لي: ولدي الوزير.

ولعل هذه العلاقة النفسية المعقدة هي ما صنع عبقريته السياسية؛ فقد كان يعيش بين هويتين:

هو الوزير الذي يجب أن يطيع، والابن المعنوي الذي يُسمح له أن يُقنع ويعارض ويهمس بالحقيقة.

ولو عاش شكسبير حتى عصره، كما قال المؤرخ، لكتب عنه مسرحيةً من أعظم مسرحياته؛ ففي شخصيته مزيجٌ من الطموح والوفاء، والدهاء والحنان، والسلطة والصداقة.

أما علاقته بشارل فكانت قصةً أخرى، أقرب إلى الأخوة الروحية منها إلى مجرد الصحبة.

قال بكينام:

كان ولي العهد صديقي العزيز في مثل سني، في العشرين. هوايتنا واحدة، وأفكارنا متقاربة، نقضي النهار كله معًا، وجزءًا كبيرًا من الليل أيضًا.

كانا يركبان الخيل في الفجر، ويتباحثان في شؤون المملكة عند الغروب، ثم يسهران في مكتبة القصر يقرآن التاريخ والحروب وسير الأباطرة.

قال شارل له ذات ليلة:

يا بكينام، أخشى أن نصير أسرى لما نقرأ.

فأجابه مبتسمًا:

بل نخشى أن نصير أقل من أسلافنا .

وكانا يتشاركان عفة النفس. لم يكن شارل يقرب الشراب، ولا بكينام كذلك. وكانا يريان في الانغماس في اللذة ضعفًا يليق بصغار الرجال لا بصنّاع التاريخ.

قال بكينام في حوارٍ نفسي داخلي:

السلطة تُغري، والنساء يفتنّ، والخمر تُنسي، لكن الرجل الحق هو من يعرف ماذا يرفض. ،

X

غير أن تحت هذا الصفاء كله كانت العاصفة تتشكل.ملكٌ يخشى انقسام العقيدة.ولي عهدٍ حالمٌ يرى الأخلاق أساس المُلك. ووزيرٌ لامعٌ يمسك بخيوط الجيش والبحر والسياسة.

ثلاثة رجال، لكنهم في الحقيقة ثلاثة وجوه لروحٍ واحدة: **الضمير، والحلم، والقدرة.**

وكان المؤرخ يحدق في البعيد كأنه يرى نهاياتهم، ثم قال بصوتٍ متهدج:

ما أخطر أن تجتمع المحبة بالسلطة؛ فإن نجت صارت مجدًا، وإن فسدت صارت مأساة.

في أعماق جيمس كان خوف الأب على الابن. في قلب شارل كان توق الصديق إلى صديقٍ يفهمه. وفي روح بكينام كان ذلك الصراع القديم:

هل يخدم التاج لأنه واجب، أم لأنه أحب من يجلسون تحته ؟

وهكذا بدا القصر من الخارج حصنًا منيعًا، لكنه من الداخل كان عالمًا من النفوس المتشابكة: أبوةٌ سياسية، وصداقةٌ نبيلة، وولاءٌ يختلط بالطموح.

ولعل الحكمة التي لخصت عصرهم كله كانت ما قاله الملك جيمس في آخر مجلس جمعهم:

ثم ساد الصمت.

صمتٌ يشبه اللحظة التي تسبق سقوط الستار في مأساةٍ تاريخية عظيمة.

فهمس المؤرخ، كمن يختم فصلًا من سفر الزمن:

كانوا ثلاثة رجالٍ في قصرٍ واحد، لكن التاريخ لم يرَ فيهم إلا سؤالًا واحدًا:

كيف ينجو الإنسان بقلبه حين يثقل رأسه التاج ؟

عروسُ السِّلم
حين تُزفُّ القلوبُ لتطفئَ نارَ الممالك

في مساءٍ شتويٍّ ثقيل، كانت الريح تضرب زجاج القصر الملكي كأنها رسائلُ غضبٍ قادمة من القارة الأوروبية المشتعلة. ألسنة الحرب لم تَعُد تكتفي بابتلاع الجنود، بل راحت تلتهم القرى، والحقول، وأحلام الأمهات اللواتي ينتظرن عودة الأبناء فلا يعود منهم سوى الاسم.

في تلك الليلة، جلس الملك الملك جيمس الأول في قاعةٍ يغمرها ضوء الشموع المرتجف، وقد انطبعت على قسمات وجهه هيبةُ المُلك ووجعُ الأب الذي أثقلته السياسة. أمامه وقف دوق باكنغهام جورج فيليرز دوق باكنغهام، شابًّا متقد الذكاء، يلبس رباطة الجأش كما يلبس النبلاء عباءاتهم المطرزة، غير أن عينيه كانتا تخفيان قلقًا عميقًا.

قال الملك بصوتٍ هادئ، لكن خلف هدوئه زلزلةَ قرار:

يا ولدي العزيز، لقد آن الأوان أن نخرج على الدول الأوروبية بمبادرةٍ جسورة تنهي هذه الحرب التي طالت كثيرًا، حتى أكلت الأخضر واليابس، ولم تُبقِ في الأرض إلا رمادًا وفي القلوب إلا الضغينة.

انحنى باكنغهام قليلًا، ثم رفع رأسه وفي صوته صراحةُ رجلٍ خبر دهاليز السياسة:

يا صاحب الجلالة، لقد تقدمتُ باسمكم إلى فرنسا وإسبانيا بأكثر من مبادرة، وبعثتُ الرسل تلو الرسل، ولكنهم ردّوا الجميع بخيبةٍ باردة. فرنسا لا تريد إلا الانتقام لهزيمتها في لاروشيل، وإسبانيا لا تريد أن ترفع نيرَ ظلمها عن إخواننا البروتستانت في الأراضي الواطئة.

ساد صمتٌ قصير. كان صمتًا يقطر بالحسابات، لا بالفراغ.

أطرق الملك برهة، ثم قال وهو يُدير خاتمه في إصبعه، كأن الفكرة تولد من حركة الدائرة نفسها:

يا ولدي ، إن المصاهرات الملكية تقرّب بين الدول ما لا تقرّبه المعاهدات.

تأمل باكنغهام وجه الملك، ومرّ في نفسه خاطرٌ سريع :ها هو الرجل العجوز يعود إلى سلاحٍ لا يصدأ في قصور الملوك: الزواج.

قال متسائلًا:

مصاهرةٌ مع مَن يا مولاي؟ مع فرنسا الكاثوليكية؟ أم مع إسبانيا الواقعة تحت النفوذ البابوي؟ ثم مَن العروس؟ أو لِنَقُل: مَن العريس؟

ارتسمت على شفتي الملك ابتسامةٌ خفيفة ، كأنما كان ينتظر السؤال:

العريس هو ولدي ولي العهد، أخوك وصديقك الأمير تشارلز الأول .لقد آن أن نزوجه ، وبعدها نزوجك أنت أيضًا يا ولدي.

تبسّم باكنغهام، لكن ابتسامته كانت مزيجًا من الطاعة والدهشة.

صاحب السمو لم يحدثني قط عن رغبته في الزواج.

ضحك الملك ضحكةً قصيرةً، ثم قال بحكمة الأب الذي يعرف طباع ولده:

كأنك لا تعرفه يا باكنغهام. تشارلز لا يتكلم في الزواج إلا إذا وقع في الحب. هو رجلٌ لا تؤسره السياسة، بل يؤسره القلب. وما رأيك في أن نوقعه ـــ عمدًا ـــ في حب من لا يستطيع البعد عنها لفرط جمالها، ورقتها، وأدبها، وثقافتها العالية ؟

هنا، اتسعت عينا باكنغهام قليلًا، وراحت نفسه تغوص في الفكرة . الحب المصنوع ، أيمكن أن يكون أداةَ سلام ؟ أيمكن لقلب شاب أن يحمل ما عجزت عنه الجيوش ؟

تمتم كأنه يحادث نفسه قبل أن يحادث الملك:

رُبَّ قلبٍ واحدٍ يُصلحُ ما أفسدتهُ ألفُ سيف.

ثم قال بصوتٍ مسموع:

لا أعرف في القصور الفرنسية شابةً بهذه الصفات يا صاحب الجلالة. ،

مال الملك إلى الأمام، وانخفض صوته حتى بدا كأنه سرٌّ تاريخيٌّ يولد في تلك اللحظة:

ولكن قصر الملك فيليب الرابع ملك إسبانيا يحوي هذه التحفة النادرة. أميرةٌ لو رآها ولدي لظنّ أن الشعراء لم يبالغوا يوم شبّهوا الحُسن بالقمر. إذا تزوجها، اضطرت فرنسا إلى عقد معاهدة صلح، لأنها ستفقد أقوى حليفٍ لها.

في تلك اللحظة، شعر باكنغهام أن الغرفة ضاقت بما فيها من معاني. لم تعد المسألة زواجًا، بل كانت خريطة قارةٍ بأكملها تُعاد صياغتها في وجه امرأة.

قال بإعجابٍ صادق:

مولاي، إنكم دائمًا ثاقبُو الرأي، نافذو البصيرة، تُبصرون في المصائر ما لا نراه إلا بعد وقوعه.

هزّ الملك رأسه، ثم قال بنبرة الحاسم:

حسنًا. تشارلز صديقك، لا يخفي عنك سرًّا، ولا تخفي عنه سرًّا. حدّثه في الأمر، فإن وافق شرعنا في اتخاذ خطواتٍ سريعة نحو الخطبة. ،

أجاب باكنغهام:

سأحدثه في الأمر الليلة يا صاحب الجلالة.

X

خرج باكنغهام من القاعة، غير أن خطاه في الممر الطويل لم تكن خطوات رجلٍ ينفذ أمرًا فحسب؛ كانت خطوات عقلٍ يتصارع مع نفسه.

كان القصر ساكنًا، لكن رأسه يعجّ بالأصوات.

هل يجوز أن نرسم الحب كما تُرسم حدود الدول ؟ أليس القلب أرضًا حرة ؟

لكن ، إن كان في هذا القلب خلاصُ أوروبا من الدم، أفلا يصبح الحب نفسه واجبًا تاريخيًا ؟

هنا غاص في أعماق نفسيته؛ فقد كان باكنغهام، على ما اشتهر به من دهاءٍ سياسي، يحمل حساسيةً أدبيةً مرهفة. كان يدرك أن أجمل ما في القصص الرومانسية ليس اللقاء، بل تلك المسافة التي تُخلق فيها الرغبة، حيث يصبح الغياب أشد حضورًا من الحضور نفسه.

X

حين بلغ جناح الأمير تشارلز، وجده وحيدًا يتأمل النار في الموقد. كان الأمير بطبيعته ميالًا إلى الصمت، كأن روحه تعيش في طبقةٍ أعمق من الكلام.

قال باكنغهام مبتسمًا:

أراكَ يا سمو الأمير تحدّق في النار كما يحدق الفلاسفة في مصير العالم. ،

التفت تشارلز، وفي عينيه مسحةُ شرود:

بل أحدّق في نفسي. أحيانًا أشعر أنني وُلدتُ لأحمل تاجًا أثقل من قلبي. ،

جلس باكنغهام إلى جواره، وقال بنبرة الصديق لا الوزير:

وهل فكرت يومًا أن القلب نفسه قد يكون تاجًا آخر؟ ،

ابتسم الأمير ابتسامةً خافتة:

أتعني الزواج ؟

هنا شعر باكنغهام أن الملك كان يعرف ابنه حقّ المعرفة.

قال:

نعم. ماذا لو أخبرتك أن في قصر إسبانيا أميرةً لو رأيتها لنسيتَ أن السياسة هي من قادتك إليها ؟

رفع الأمير حاجبه، وقد بدأ فضوله يستيقظ.

صفها.

هنا أخذ باكنغهام ينسج الصورة كما ينسج شاعرٌ مشهدًا من ضوء:

هي شابةٌ جمع الله لها من الحسن ما يوقظ الحلم في العيون. وجهها هادئٌ كقمرٍ خرج من غيمٍ أندلسي، وعقلها راجحٌ كأنها تربّت بين الفلاسفة، ولسانها عذبٌ إذا تكلمت، حتى ليخيّل للسامع أن الكلمات خُلقت لأجل صوتها.

سكت قليلًا، ثم أردف:

أما أدبها، ففيه من الرقة ما يجعل القسوة تخجل من نفسها.

بدا على الأمير أثرُ التأمل، ثم قال بصوتٍ خافت:

، وهل تظن أن الحب يمكن أن يولد من وصف ؟

أجابه باكنغهام:

بل يولد أحيانًا من فكرة. الصورة تسبق اللقاء، والخيالُ يمهّد للقلب. ،

هنا انفتح في نفس الأمير بابٌ داخليٌّ لم يكن يدركه. راح يتخيلها: تمشي في أروقة قصرٍ إسباني، يلامس ضوءُ الشموع شعرها، وتختلط في حضورها رائحة الياسمين بصوت العود البعيد.

ولأول مرة، أحسّ أن الزواج ليس واجبًا ملكيًّا فحسب، بل احتمالُ حياةٍ كاملة.

تمتم كأنه يحدّث ذاته:

لعل الله يجعل في وجه امرأةٍ سلامَ قارة. ،

X

أما المؤرخ الذي يروي هذه الحكاية من وراء القرون فإنه يقف هنا ليقول:

إن النساء في التاريخ لم يكنّ دومًا هامشًا لعروش الرجال، بل كنّ في كثيرٍ من الأحيان محورَ الخطة، والعمود الفقري للسياسة، والممرَّ السريَّ الذي تعبر منه الأمم من الحرب إلى الصلح.

وهذه الشابة الحلوة العاشقة المعشوقة، التي لم تدخل المسرح بعد، ليست زينةً رومانسيةً للقصة، بل هي روحها الخفية، والنقطة التي تتقاطع عندها شهوات السلطة، ونداءات القلب، ومصائر الشعوب.

ولعل أصدق ما يقال في هذا المقام حكمةُ العرب:

ما لا تفتحهُ السيوفُ، قد تفتحهُ العيون. ،

وهكذا انطلقت الشرارة الأولى: ملكٌ يفكر بعقل الدولة، ووزيرٌ يمشي بين دهاء السياسة وارتباك الضمير، وأميرٌ بدأ قلبه يتفتح على صورة امرأةٍ لم يرها بعد.

ومن هنا تبدأ القصة الحقيقية: قصةُ حبٍّ لم يولد من صدفة، بل من إرادة التاريخ.

ير أن التاريخ كما يعلمنا دائمًا يبدأ بالحساب، ثم ينتهي بما لا يمكن حسابه :**القلب.**

عرسُ الرماد في زمنِ الصليب والنار

في مطالع القرن السابع عشر، كانت أوروبّا تبدو كقارةٍ تمشي على جمرٍ خفيّ؛ كنائسها عامرةٌ بالأجراس، غير أنّ الأجراس لم تعد تدعو إلى الصلاة وحدها، بل إلى الحرب أيضًا.

كانت حرب الثلاثين عامًا قد اشتعلت، فصارت المدن رمادًا، والحقول مقابر، والقلوب متاريس من خوفٍ وعقيدة. وقد بدأت مرحلتها الأولى فعلًا مع أزمة البالاتينات وصراع آل هابسبورغ مع القوى البروتستانتية، فيما حاول جيمس الأول أن يصوغ سلامًا عبر المصاهرة مع إسبانيا فيما عُرف تاريخيًا بـ ، الزواج الإسباني ، .

في تلك الليلة، كان قصر الفاتيكان غارقًا في سكونٍ ثقيل، كأنّ الرخام نفسه يتنصّت على أسرار الرجال.

جلس **سيد روما** في مقصورةٍ نصف مظلمة، لا يظهر من وجهه إلا بريق عينين باردتين، كعيني صقرٍ يراقب ساحة موت.

قال بصوتٍ رخيم، يقطر ثقةً ودهاءً:

نعلم أنّ القضاء على كل البروتستانت مستحيل، كما استعصى على الممالك أن تستأصل خصومها في كل زمان؛ ولكن، ما لا يُنال كلّه لا يُترك جلّه.

سكت المجلس لحظة، كأن العبارة وقعت في القلوب كحدّ سيف.

فقال أحد الحاضرين، وقد انحنى قليلًا :

ماذا تعني يا سيد روما ؟

أجاب، وهو يدير خاتمه الذهبي في إصبعه:

من عجزنا عن إفنائه، أكرهناه على التحوّل. إن لم يمت الجسد، فلتَمُت العقيدة فيه. هدفنا الآن بريطانيا؛ جزيرةٌ استعصت طويلًا، لكنها ليست بمنأى عن اليد الخفية.

كان صوته هادئًا، إلا أن الهدوء نفسه كان أشد رعبًا من الصراخ.

ضحكتُ ساخرًا، وأنا أرقب خرائط أوروبا المعلقة على الجدار:

بريطانيا ! تلك التي ثبّتت فيها إليزابيث الأولى أركان البروتستانتية ؟

إنّ الشعب هناك لن يعود إلى تبعية الكنيسة الرومانية، ولو سُيّرت إليه الجيوش من آخر الأرض.

رفع رأسه ببطء، وقال في نبرة العارف بخفايا البلاطات :

في حياة إليزابيث كان ذلك مستحيلًا. أمّا الآن، فعرشها صار إلى جيمس الأول؛ رجلٌ بروتستانتيّ المذهب، لكنه كاثوليكيُّ الهوى في أعماقه، وقد ربّته أمٌّ كاثوليكية .

ثم مال إلى الأمام، كأنّه يلقي سرًّا من أسرار السماء السوداء :

العقبة الحقيقية ليست الملك... بل ذلك الفتى الذي لم يبلغ من العمر سوى عقدين: جورج فيليرز.

هنا تبدّل وجه المجلس.

كان الاسم وحده يثير في النفوس رهبةً وغضبًا.

تابع سيد روما :

إنه يسيطر على الملك سيطرة الابن المدلّل، وعلى الأمير شارل سيطرة الأخ الحميم. الملك يدعوه: ولدي. وولي العهد يقول له: صديقي وأخي.

وقد كان نفوذه على جيمس الأول حقيقة سياسية كبرى في البلاط الإنجليزي .

ثم انخفض صوته إلى همس :

لكنه ، ليس عصيًّا على السقوط.

سأل الرجل الذي إلى جواري، وقد شحب وجهه :

التخلص منه ؟ كيف ؟

فابتسم سيد روما ابتسامةً لا حياة فيها :

بالطريقة التي يُزاح بها من يقف في طريق العروش ، الاغتيال.

ارتجف الهواء في القاعة.

أليس الاغتيال جريمةً في العقيدة ؟

قالها أحد الرهبان بصوتٍ مضطرب.

فأجابه ببرودٍ كأنما يتلو قانونًا قديمًا :

حين يكون الهدف خلاص الأرواح، تتبدّل أسماء الخطايا. كلّ شيءٍ مباح في سبيل العقيدة: التحريض، الثورة، الدم، النار... حتى لو احترقت الأديرة والكنائس فوق من فيها.

ثم تمتم كمن يستحضر ذاكرةً دامية :

هل نسيتم مذبحة سان بارتيليمي ؟

ساد الصمت.

كان الصمت هنا أبلغ من أي جواب؛ صمتٌ يحمل رائحة الدم القديم.

X

وفي الضفة الأخرى من المشهد، في قصر وايتهول بلندن، كان جيمس الأول يسير وحده في رواقٍ طويل، تتراقص على جدرانه ألسنة الشموع.

كان رجلًا تحكمه معضلتان:

قلبُ أبٍ يريد سلام أوروبا، وعقلُ ملكٍ يعرف أن السلام لا يُشترى إلا بتنازلاتٍ مؤلمة.

في داخله دار الحوار الأصعب:

إن أوروبا تنزف ، ألمانيا تحترق، والبالاتينات ضاعت من زوج ابنتي إليزابيث .إن أخرجت إسبانيا من الحرب، تهاوى موقف آل هابسبورغ، وربما عاد التوازن إلى القارة .

دخلت عليه ابنته، فسألته :

وكيف تُخرج إسبانيا من الحرب، وهي دخلتها نصرةً لملك النمسا، زوج أختي ؟

توقّف الملك عند النافذة. كان المطر ينهمر فوق لندن كأنه نواحٌ سماوي.

قال:

بالأسلوب نفسه الذي دخلت به ، بالمصاهرة. إذا زوّجتُ ولدي تشارلز الأول من أخت فيليب الرابع، مالت مدريد إلى المهادنة. لا شيء يعيد الصفاء إلى أوروبا مثل الدم الذي يصير نسبًا.

ثم أطرق قليلًا وأضاف، كأنّه يخاطب نفسه:

الملوك يا ابنتي يبنون السلام بالزواج كما يبنيه الجنود بالمدافع.

كان في صوته تعب القرون.

قالت ابنته:

لكن العريس بروتستانتي، والعروس كاثوليكية ، أيمكن حقًا أن تتمّ مصاهرة كهذه ؟

هنا دخل جورج فيليرز، شابًا متّقد الحضور، يسبق بريقُ ذكائه خطاه.

قال وهو ينحني بانضباطٍ أرستقراطي :

بل يمكن يا سيدتي، إذا سافر الأمير بنفسه إلى مدريد، ورأى العروس بعينه، ومالت القلوب قبل أن تميل السياسة.

وكانت هذه هي الفكرة التي ستقود لاحقًا رحلة الأمير تشارلز وبكنغهام السرية إلى مدريد سنة 1623، في واحدة من أشهر مغامرات الدبلوماسية الأوروبية .

X

لكن داخل بكنغهام نفسه، كانت حربٌ أخرى لا تقل ضراوة عن حرب القارة. وقف أمام مرآته بعد انفضاض المجلس، يتأمل صورته بوجهٍ لا يعرف الطمأنينة.

قال في سرّه:

أنا الذي أمسكتُ قلب الملك بيدي، وأنا الذي جعلتُ الأمير يرى العالم بعينيّ. لكنّ النفوذ لعنة؛ كل عينٍ في أوروبا تتمنى سقوطي. فرنسا تكرهني، إسبانيا تتحفّز لير، وروما تترصّد أنفاسي. أأنا رجلُ دولة... أم مجرد هدفٍ متحرك ؟

هنا يغوص النص في نفسيته:

لم يكن بكنغهام مغرورًا فحسب، بل كان أسيرًا لفكرة الخلود السياسي.

أراد أن يثبت أنه قادر على صناعة أوروبا جديدة، وأن التاريخ لا يُكتب فقط بأسماء الملوك، بل بأسماء الرجال الذين يقفون خلفهم.

تمتم ببيتٍ من الشعر كأنّه يستدعي حكمة الزمن:

إذا غامرتَ في شرفٍ مرومٍ فلا تقنعْ بما دونَ النجومِ

ثم ابتسم لنفسه ابتسامةً شاحبة :

وأنا... لا أرضى إلا النجوم.

X

في مدريد، كانت القصة أكثر درامية.

وصل الأمير تشارلز مع بكنغهام في رحلةٍ سرية، تحيط بها الأوهام والآمال.

لكن البلاط الإسباني كان أكثر صلابةً مما تصوّرا؛ فالأميرة الكاثوليكية لا تُرى بسهولة، والكنيسة تطالب بحرية الكاثوليك في إنجلترا شرطًا للزواج. وقد فشلت هذه الرحلة تاريخيًا بسبب التعقيدات الدينية والسياسية .

قال تشارلز في حوارٍ داخلي موجع:

أأنا وليُّ عهد إنجلترا، أم متسوّلُ زواجٍ على أبواب مدريد ؟ كيف يُراد مني أن أساوم على إيمان شعبي لأجل امرأةٍ لم أرَ وجهها ؟

أجابه بكنغهام، في حوارٍ خارجي عميق :

يا سيدي، ليست المرأة هي المقصودة ، بل أوروبا. إذا تمّ هذا الزواج، صمتت المدافع.

ردّ تشارلز بمرارة :

وأي سلامٍ يُبنى على خيانة الضمير ؟

X

هنا ينعطف المشهد إلى بعدٍ فلسفي اجتماعي:

القارة كلها كانت أسيرة سؤالٍ واحد:

هل الدين هويةُ شعب، أم أداةُ سياسة ؟

وكان جواب الملوك مختلفًا عن جواب الشعوب.

الشعوب أرادت خبزًا وأمانًا.

أما الملوك، فأرادوا توازناتٍ تحفظ العروش.

ففي زمن العسر، تنكشف معادن الرجال.

X

عاد تشارلز من مدريد خائبًا، وعاد معه بكنغهام بوجهٍ أكثر صلابة، كأن الفشل زاده إصرارًا لا انكسارًا.

أما جيمس الأول، فوقف في قصره يتأمل أوروبا من خلال خريطةٍ ملطخة بظلال الشمع، وقال في نفسه:

أردتُ سلامًا فأنجبتُ عاصفة .أردتُ نسبًا يطفئ الحرب، فزاد النار زيتًا .هكذا الملوك؛ يحلمون بوردةٍ، فتخرج من أيديهم شوكة.

وكان قد تعلّم متأخرًا أن أوروبا لا يحكمها الحب، بل توازن الخوف.

X

وهكذا انتهى المشهد لا بانطفاء النار، بل بانتقالها من ساحة المعركة إلى صدور الرجال:

روما تحيك ، ولندن تناور، ومدريد تساوم، وبكنغهام يمشي نحو قدره، لا يدري أن التاريخ قد كتب له نهايةً دامية بعد أعوام.

لكن ذلك... فصلٌ آخر من الحكاية.

رحلةٌ إلى الظلّ الملكي:
بكنغهام، شارل ، وعروسُ إسبانيا

ويقول المؤرخون إنّ جورج فيليرز دوق بكنغهام كان **مهندس السياسة البريطانية في تلك الحقبة؛** لا لأنّه كان أبرع رجال الدولة حيلةً فحسب، بل لأنّه عرف كيف يُلبس الطموحَ ثوبَ القدر، وكيف يجعل من العاطفة أداةً للعرش، ومن القلب جسراً تعبر فوقه الدول.

وفي ليلةٍ من ليالي لندن التي كانت السماء فيها ملبّدةً بضبابٍ كثيف، كأنّ التاريخ نفسه يحجب وجهه مترقّباً، وقف بكنغهام عند النافذة الطويلة في قصره، يتأمل وهج المشاعل المرتعش في البعيد. كان يسمع صدى خطواته في الرواق الحجري كأنها أسئلةٌ تطارده:

أأنا صانعُ مجد إنجلترا، أم حافرُ هاويتها ؟ أأقود وليَّ العهد إلى الحب، أم إلى الفتنة ؟

وكان في أعماقه رجلان يتنازعان :

رجلُ دولةٍ بارع يرى المصاهرة مع إسبانيا باباً للنفوذ والسلام ، ورجلُ نفسٍ يعرف أنّ القلوب، إذا دخلت لعبة السياسة، أحرقت اللاعبين جميعاً.

تنفّس بعمق، ثم قال كأنّه يخاطب شبحاً يخرج من التاريخ:

لقد بصّرتُ مولاي الملك بمخاطر هذه المحاولة ، لكنه قال لي : **إنك خيرُ من يبلغ بالمحاولة الهدفَ المأمول .**

كان صوت الملك ما يزال يتردّد في ذاكرته، ثقيلاً، آمراً، يقطر يقيناً. ولم يكن أمامه إلا أن يبدأ بالخيط الأهم :**قلب وليّ العهد الأمير شارل**.

X

دخل على الأمير في جناحه الخاص، فوجده جالساً قرب المدفأة، تتراقص النار على ملامحه الشابة فتمنحها مسحةً من التردد النبيل. كان شارل يومئذٍ في ربيع العشرين، وفي عينيه ذلك البريق الذي يجمع بين البراءة الملكية والفضول الإنساني.

اقترب بكنغهام مبتسماً، وفي صوته دفء الصداقة القديمة:

بدأتُ بأن حدّثتُ وليّ العهد، الأمير شارل، صديقي وأليف شبابي.

رفع شارل رأسه، ثم قال في دهشةٍ مشوبةٍ بالمرح:

جورج، أتريدني أن أتزوج كاثوليكية ؟

ابتسم بكنغهام ابتسامةً ذكية، كمن يلقي الطُعم في ماءٍ يعرف أسراره، وقال:

كاثوليكية ، جميلة.

سكت الأمير لحظة، ثم مال بجسده إلى الأمام، كأنّ كلمة جميلة قد لامست في نفسه وتراً خفياً:

وهل رأيتها يا جورج ؟

هنا أبطأ بكنغهام في الجواب، متعمّداً أن ينسج الصورة بخيوط الإغراء:

رأيتها مرة، حين كنتُ مندوباً لجلالة الملك في بلاط فيليب الرابع.

جميلة، لا شك في هذا ، بل إنّ جمالها من ذلك النوع الذي لا يُروى وصفاً، وإنما يُدرك لمعةً في العين وارتباكاً في القلب. وهي صغيرة السن، وفي هذا—يا صديقي—فرصةٌ نادرة:

أن تنشئها كما تريد، على ما يهوى قلبك ويرضى عقلك.

ساد صمت قصير، وكان شارل يحدّق في ألسنة النار. وفي داخله، بدأت الصورة تتكوّن: أميرةٌ لم يرها، وجهٌ مرسوم بالخيال، عينان ربما تشبهان ليل الأندلس.

قال متردداً:

وما يدريك أنها سترضى بي عريساً ؟

ضحك بكنغهام ضحكة الواثق الذي يعرف كيف يُرمّم شكوك النفوس، ثم قال بصدقٍ مصقولٍ بالدهاء

يا صديقي العزيز، ماذا تريد الفتاة من عريسها ؟ الشباب ؟ وأنت فتى في العشرين. الثراء ؟ وأنت من أثرى أثرياء بريطانيا بما ورثتَ عن والدتك، قدّس الله روحها. المنصب والجاه ؟ وأنت وليُّ عهد إنجلترا واسكتلندا وإيرلندا. أما الظرف والأناقة والجمال الرجولي، ففيك منها أكمل المعاني.

ثم اقترب أكثر، وخفّض صوته كمن يهمس بسرّ سحري:

حسناً ، دعها ترى اللوحة التي رسمها لك بيتر بول روبنز، وبعدها سترى أنّها أحرص الناس على الزواج منك، حتى لو كنتَ من عُبّاد الوثن **!**

انفجر الاثنان ضاحكين، ضحكة شبابٍ لم يمسّه بعدُ صدأُ العروش. لكن بكنغهام، وراء ضحكته، كان يراقب وجه الأمير بدقة رجلٍ يقرأ خرائط المعارك. وقد لمح هناك ما أراد :**أول شرارة قبول.**

قال شارل بعد أن هدأ ضحكه:

وهل تظن أباها الملك يوافق على مثل هذه الخطبة ؟

أجاب بكنغهام، وقد اتسعت في ذهنه رقعة اللعبة السياسية:

إنّ فيليب الرابع لا يقبل النصيحة إلا من وزيره الأول غاسبار دي غوثمان كونتدوق أوليفاريس .صحيحٌ أنّه شديد الكبرياء، متصلّب الرأي، لكنه لن يستطيع أن يقف في وجه إرادة العروس إذا مالت إليك.

هنا بدا الشك الإنساني في صوت الأمير، لا شك وليّ العهد بل شك الشاب الذي يتهيّب المجهول:

هذا إذا قبلتني.

مال بكنغهام إليه، ونظر في عينيه بثقةٍ تكاد تكون شعراً:

بل ستقبلك، بل ستركع تحت قدميك وتقول لك:

احملني على جوادك الأبيض أيها الفارس إلى مملكتك.

هزّ شارل رأسه مبتسماً:

جورج، كن جاداً. أهذه إرادة والدي العظيم ؟

تغيّرت ملامح بكنغهام، وصار أكثر وقاراً:

بل هذا تماماً ما قاله لي صاحب الجلالة الملك. قال لي ،وهذا سرّ لا تقل إنني أطلعتك عليه

قاطعه شارل ضاحكاً:

ومتى عرفتما بيني وبينك من أسرار؟ ماذا قال لك أبي ؟

هنا أطلق بكنغهام عبارته التي كان يدّخرها كالسهم الأخير:

حين قلتُ له إنك لن تتزوج إلا إذا وقعتَ في الحب ،

قال لي:

إذن فلنُوقِعه في الحب.

ضحك شارل، لكن ضحكته هذه المرة لم تكن خفيفة، بل كانت تحمل دهشة الروح أمام فكرةٍ تسحرها:

حبُّ أخت ملك إسبانيا التي لم أرها ؟

فأجابه بكنغهام مؤكداً، وفي صوته يقين من يرى خيوط المستقبل:

ستراها يا عزيزي، ستراها. إنني منذ حدّثني جلالة الملك في الأمر، وأنا أفكر في كل شؤون الرحلة إلى إسبانيا.

انتفض الأمير في دهشة صافية:

ماذا؟ نذهب إلى إسبانيا ؟

لو علم البابا، أو لو علم الكاردينال ريشيليو، الوزير الأول الفرنسي، لفشل المشروع قبل أن يبدأ!

هنا أشرق وجه بكنغهام بذلك البريق الذي لا يظهر إلا في وجوه الرجال العاشقين للمخاطرة:

لهذا ستكون رحلتنا إلى إسبانيا في سريةٍ شديدة.

لن يعلم بها أحد، حتى الملك الإسباني نفسه. سنذهب متنكرين، يا عزيزي، في ثياب التجار ،

ثم مال نحوه بعينين تلمعان:

ألا تراها مغامرةً لطيفة؟

سكت شارل، لكن قلبه لم يسكت. في داخله دار حوارٌ لم يسمعه بكنغهام:

أأنا ذاهبٌ لأجل الدولة، أم لأجل صورة امرأةٍ لم أرها ؟ أيمكن للحب أن يولد من وصفٍ ولوحةٍ ووعد ؟ أم أن جورج، كعادته، ينسج لي من الأوهام سلّماً إلى المجهول ؟

ثم ابتسم لنفسه:

لكن كيف يكون أولاً من لم أره بعد ؟

كان في هذا السؤال شيءٌ من فلسفة النفس، وشيءٌ من سذاجة الشباب. وهنا تكمن عظمة اللحظة :**السياسة تتخفّى في ثوب الحلم، والحلم يظن نفسه حباً.**

X

أما بكنغهام، ففي أعماقه كانت أمواجٌ أعنف. لقد عرف أن هذه الرحلة ليست مجرد خطبة، بل مقامرة بين الممالك:

إن نجحت، كسب السلام مع إسبانيا، وأثبت أنه رجل العصر الأول. وإن فشلت، فقد يسقط رأسه قبل أن تعود السفينة إلى دوفر.

ومع ذلك، كان ثمة شيءٌ أعمق من السياسة:

لقد أحبّ بكنغهام نفسه فكرة البطولة. أحبّ أن يكون الرجل الذي يقتحم المستحيل، الرجل الذي يسرق من التاريخ صفحةً ويكتب عليها اسمه.

وقال في سره حكمةً طالما آمن بها:

من لم يركب البحرَ لم يعرف اللؤلؤ ، ومن لم يخاطر بالعُمر لم يصنع الخلود.

اقترب من الأمير ووضع يده على كتفه:

يا شارل، إنّ الملوك يُصنعون في ساحات الحرب ، لكنّ **العظماء يُصنعون في لحظات الجرأة.**

رفع شارل عينيه إليه، وقد بدأت المغامرة تُشعل في روحه لذةً غامضة. كان يرى نفسه على طرق إسبانيا، متنكرًا، يسير بين الغرباء نحو أميرةٍ لم يرها إلا في خيال جورج.

قال أخيراً:

ومتى نرحل ؟

هنا شعر بكنغهام بانتصارٍ صامت. لقد دخل الفتى اللعبة طوعاً.

أجاب:

حين ينام البلاط، وتغفو العيون، ويظن العالم أن وليّ عهد إنجلترا ما يزال في قصره .سنخرج ليلًا، كأننا شخصيتان من أسطورةٍ أندلسية.

ثم همس:

وربما، يا شارل، يكتب المؤرخون بعدنا أن هذه الرحلة غيّرت وجه أوروبا.

X

وفي تلك الليلة، حين افترقا، بقي بكنغهام وحده في الرواق الطويل. مرّت أمامه صورٌ كثيرة:

وجه الملك الواثق ، ضحكة شارل الشابة ، ظلّ أميرةٍ لم يرها منذ سنوات ، وخرائط أوروبا المضطربة بين الكاثوليك والبروتستانت.

شعر فجأةً بوحدةٍ عميقة، تلك الوحدة التي لا يعرفها إلا من يحمل مصائر الآخرين فوق كتفيه.

وقال لنفسه:

إنّ أخطر ما في السياسة ليس الكذب ، بل أن يتحوّل الحلمُ الصادق إلى وسيلة.

ثم سار نحو الظلام، كأنّه يسير إلى قدره. وفي آخر الرواق، كانت نافذةٌ مفتوحة على ليل لندن .رفع بصره إلى السماء وقال:

تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ ، لكنّ السفنَ العظيمة تعرف كيف تروض العاصفة.

وهكذا بدأت الرحلة :رحلةُ حبٍّ لم يولد بعد ، ومؤامرةُ سياسةٍ تنكّرت في ثياب العاطفة ، ومغامرةُ رجلين ظنّا أنّ التاريخ يُكتب بالجرأة وحدها ،

غير أنّ التاريخ كما يقول الحكماء **يبتسم أولاً للمغامرين، ثم يمتحنهم بما لا يرحم.**

مغامرة التاج والقناع

رحلة شارل وبكنغهام السرّية إلى المجهول

قال الرجل بصوتٍ خفيضٍ لا يكاد يجاوز حدود المصباح المرتعش في الحجرة الحجرية:

ثلاثةٌ من أشدّ رجالي في المخابرات العسكرية البريطانية سيحرسون الطريق، حفاظًا على الأسرار. وهل يُعقل، يا صديقي، أن أُعرِّض وليَّ عهد بريطانيا، وصديقي العزيز، للخطر دون الحماية اللازمة؟ اعتمد على أخيك جورج، ففي قلبه من الوفاء ما يفوق حديد السيوف.

كان المتكلّم هو **لورد بكنغهام**، بعينيه اللتين طالما اجتمع فيهما بريق السياسة ولهيب المغامرة، بينما كان الجالس قبالته، وقد أسند ذقنه إلى راحة يده، هو **ولي العهد شارل**؛ شابًّا في ربيع العشرين، يتأرجح بين ثقل التاج وخفّة الحلم.

رفع شارل رأسه، وعلى شفتيه ابتسامةٌ يختلط فيها العبث بالنبل، وقال:

من ذا الذي يصدّق هذا يا جورج؟ وليُّ عهد بريطانيا ووزيرها الأول في رحلة خطوبة سرّية! كأنّنا بطلان في هزلية من هزليات شكسبير، لا يفصل بيننا وبين سقوط الستار إلا ضحكة الجمهور.

قهقه بكنغهام، ثم مال نحوه كمن يُلقي بسرٍّ على أذن الزمن:

بل هي هزلية شابّين في العشرين يبحثان عن المغامرة، لا عن العقل. فهل تفكّر في التراجع ؟ ،

ساد صمتٌ قصير .كان الصمت في تلك الغرفة أثقل من الحديد؛ لأنّه لم يكن صمت المكان، بل صمت النفس حين تنظر في مرآتها.

في داخل شارل، كانت حربٌ خفيّة تدور .جزءٌ منه كان الأمير الذي تربّى على البروتوكول، على خطوات القصور المحسوبة، وعلى الكلمات التي تُقال بميزان الذهب.وجزءٌ آخر كان الشاب الذي سئم أن يعيش حياته مكتوبةً سلفًا في دفاتر رجال البلاط.

كان يشعر، للمرة الأولى، أنّه لا يريد أن يكون **اسمًا في شجرة النسب الملكية**، بل إنسانًا يمتحن قلبه بنفسه.

قال في نفسه:

ما قيمة التاج إن لم أذق طعم الخطر ؟ وما معنى المجد إن لم ألمس بيدي أبواب المجهول ؟

ثم انفرجت شفتاه عن ضحكةٍ صافية، وقال منكرًا على صديقه شكّه:

أتراجع عمّا تُقدِم عليه أنت يا جورج ؟ أنا لا أقلّ عنك حبًّا للمغامرة. متى نرحل ؟ ،

أجابه بكنغهام، وقد اتّقدت عيناه:

في منتصف فبراير القادم.

وهكذا، في **الثامن عشر من فبراير سنة 1622**، بدأت واحدة من أعجب المغامرات في التاريخ؛ مغامرةٌ امتزج فيها الحبّ بالسياسة، والشباب بالمقامرة، والهوى بمصائر الأمم.

X

خرج الاثنان تحت جنح الفجر، في ثياب **تجّار غلال**، خشنٍ نسيجها، تفوح منها رائحة المخازن والقمح والرطوبة.

لم يعد هناك وليّ عهد ولا وزير أوّل، بل **توماس ليفرون** و**جون سميث**، اسمان عاديّان كأنّهما وُلدا في زحام الأسواق لا في أروقة القصور.

كان البحر في تلك الساعة رماديًّا، يلفّه ضبابٌ كثيف يشبه سرًّا من أسرار الملوك. وصوت النوارس يتردّد فوق الميناء كأنّه نبوءة.

توقّف شارل، ناظرًا إلى الأرصفة المبلّلة، وقال لصديقه بصوتٍ خافت:

لماذا إلى ميناء بريتون يا جورج ؟ السفن التي تُبحر إلى فرنسا لا ترسو هنا عادةً. كان ينبغي أن نغادر من بورتسموث.

ابتسم بكنغهام ابتسامة رجلٍ يعرف دهاليز الخطر كما يعرف خطوط كفّه، ثم قال:

هذا، يا عزيزي التاجر توماس ليفرون، أدعى إلى السرّية. ميناء بورتسموث هو المكان المفضّل للجواسيس الفرنسيين. ثم هل نسيت أنّنا أبحرنا منه في حملتنا البحرية على لاروشيل؟ لن تجد بحّارًا واحدًا هناك ينسى وجه وليّ العهد الوسيم، مهما أطلت لحيته.

ضحك شارل، وكانت ضحكته في الليل مثل ومضة سيف:

صدقت، ولا وجه قائد الحملة، لورد بكنغهام، رغم اللحية. بالمناسبة، لحيتك أطول من اللازم.

أجابه بكنغهام مازحًا وهو يتحسّس ذقنه:

ولحيتك أقصر من اللازم. هذا هو الفرق الوحيد بين التاجرين توماس ليفرون وجون سميث.

ثم توقّف لحظة، وأردف بنبرة جادّة:

ومن هذه اللحظة، لن نتبادل الحديث إلا بهذين الاسمين.

أطرق شارل رأسه قليلًا، كأنّه يتذوّق لذّة الخروج من ذاته، ثم قال:

كما تحبّ، أيّها التاجر المرح جون سميث. ،

X

تحرّكت السفينة ببطء، وبدأت بريطانيا تتراجع خلفهما كذكرى من ضباب.

وقف شارل عند الحافة، يراقب انكماش الوطن في الأفق، وشعر لأول مرة أنّه لا يبتعد عن اليابسة فحسب، بل يبتعد عن **نسخته القديمة**.

هنا بدأ الحوار الداخلي يشتعل.

أأنا أهرب من القصر، أم أهرب من نفسي ؟ أأبحث عن أميرةٍ في فرنسا، أم عن رجلٍ في داخلي لم يُتح له أن يولد ؟

كان يدرك أنّ الرحلة ليست مجرّد خطوبةٍ سرّية، بل امتحان وجوديّ لذاته.

في القصور، كان الجميع ينظرون إليه كرمزٍ للمستقبل. أما هنا، فوق هذا الخشب الذي يئنّ تحت الموج، فلم يكن سوى إنسانٍ يحمل قلبًا مضطربًا.

فتمتم بها كمن يستمدّ منها شجاعةً خفيّة.

اقترب منه بكنغهام، وقد لمح في عينيه ذلك الشرود النبيل، وقال:

بماذا تفكّر يا توماس ؟ ،

أجابه شارل بعد صمت:

أفكّر أنّ الرجال لا يُعرفون في القصور، بل في الطرقات الموحلة، وفي البحر حين يغضب، وفي الخوف حين يقترب.

ابتسم بكنغهام بإعجابٍ صادق:

إذن بدأت تتعلّم أوّل دروس المُلك.

ردّ شارل:

وأيّ درسٍ هذا ؟ ،

قال جورج:

أنّ التاج الحقيقي ليس ما يوضع فوق الرأس، بل ما يُصاغ في النفس.

X

في المساء، حين اشتدّت الرياح، جلسا في قمرةٍ ضيّقة يضيئها فانوس زيتٍ صغير. كان الخارج صاخبًا، أمّا الداخل فمسرحًا لحوارٍ أعمق.

قال شارل:

جورج، أخبرني بصدق ، هل نحن نفعل هذا من أجل الدولة أم من أجل نزوة الشباب ؟ ،

نظر بكنغهام إليه طويلًا، ثم قال:

كلاهما. الدولة تحتاج هذا الزواج، وأنت تحتاج هذه المغامرة. أحيانًا يلتقي مصير الأمم مع حاجة القلب.

هزّ شارل رأسه متأمّلًا. لقد لامست كلمات صديقه موضعًا خفيًّا في روحه. كان يشعر أن المجتمع كلّه البلاط، الشعب، الكنيسة، السفراء يراه مشروع ملك، لا شابًّا له خوفه ولهفته ورجاؤه.

X

الصراع بين الإنسان والدور الاجتماعي.

فشارل لم يكن يهرب إلى فرنسا فقط، بل كان يهرب من صورةٍ صنعها له الآخرون.

قال بهدوء:

أتعلم يا جورج؟ أكثر ما يُرهقني ليس الخطر، بل أن أعيش دومًا كما يريد الناس.

أجابه بكنغهام بحكمة رجل خبر البشر:

الناس يا صديقي يحبّون الصورة أكثر من الحقيقة. لكن الحقيقة وحدها هي التي تصنع التاريخ. ،

X

مرّت الأيام في البحر ثقيلةً وخاطفة في آنٍ واحد. كلّ ليلةٍ كان شارل يحدّث نفسه:

ماذا لو انكشفنا ؟ ماذا لو وصلت الأخبار إلى فرنسا ؟ ماذا لو فشلت الخطبة ؟

لكن خلف هذه الأسئلة كان هناك سؤالٌ أكبر:

ماذا لو نجحتُ في أن أكون نفسي ؟

في إحدى الليالي، بينما كانت الأمواج تضرب جوانب السفينة كطبول حرب، قال بكنغهام:

توماس، ما الذي تخشاه حقًّا ؟

تنهّد شارل وقال:

أخشى أن أعود كما ذهبت. أن تنتهي الرحلة ولا يتغيّر في داخلي شيء. ،

ضحك جورج ضحكةً عميقة وقال:

من يخرج من القصر متنكّرًا، ويعبر البحر باسمٍ مستعار، لا يمكن أن يعود كما كان.

ثم أضاف كمن يسكب حكمة العمر:

السفر لا يبدّل الأمكنة فقط، بل يكشف طبقات الروح. ،

X

حين لاحت سواحل فرنسا أخيرًا، وقف الاثنان على سطح السفينة، والريح تعبث بلحاهما المستعارتين.

كانت السماء بلون الفضة، والماء كمرآةٍ ممزّقة، والضفّة البعيدة أشبه بوعدٍ غامض.

شعر شارل أن قلبه يخفق لا كوليّ عهد، بل كرجلٍ يدخل الفصل الأهم من رواية حياته.

قال بصوتٍ يكاد يضيع في الريح:

هنا تبدأ الحكاية حقًّا.

فأجابه بكنغهام:

بل هنا يبدأ التاريخ في ارتداء قناع الأدب.

وفي تلك اللحظة أدرك شارل أن أجمل ما في المغامرة ليس الوصول، بل التحوّل الذي يحدث في النفس أثناء الطريق.

ولعلّ الحكمة الأصدق التي خرج بها من تلك الرحلة قبل أن تطأ قدماه اليابسة كانت:

من عرف نفسه في الخطر، هان عليه أن يحكم العالم في السلم.

وهكذا مضى **توماس ليفرون** و**جون سميث** نحو البرّ الفرنسي، لا كتاجٍ ووزارة، بل كروحَين شابّتَين تفتّشان عن الحبّ والمجد ومعنى

الذات، في زمنٍ كان التاريخ فيه يُكتب بالسفن والرسائل والقلوب المرتجفة.

وكان الليل من حولهما يبتسم، كأنّ شكسبير نفسه يجلس في مكانٍ ما من الغيب، يدوّن هذه المغامرة، ويهمس:

ما أبدع أن يتنكّر الملوك كي يلتقوا بحقيقتهم.

على ضفاف المانش
قناعُ القمح ووجوهُ العرش

في ميناء بريتون البريطاني، حيث كان المانش يتمدّد تحت الليل كصفحةٍ من فولاذٍ أزرق، تلمع فوقها أنيابُ القمر، وتئنّ على ضفّتيه رياح الحرب كأنها أرواحُ قتلى لم تجد بعدُ قبورَها، استأجر أحدُ رجال المخابرات الثلاثة سفينةً عظيمة البطن، مثقلةً بأغلال القمح، حتى بدت من بعيد كأنها جزيرةٌ خشبية تسبح فوق الماء

كانت الأشرعة مطويةً في صمتٍ مريب، والحبالُ المشدودة تصفر مع الريح صفيرَ الأسرار، فيما وقف الرجل عند حافة الرصيف يتأمل الظلام، وفي عينيه ذلك البريق الذي لا يسكن إلا عيون من اعتادوا أن يخبئوا الحقيقة في ثوب الكذب، والكذب في عباءة الواجب.

لم تكن الرحلةُ رحلةَ تجارة، ولا كان القمحُ سوى ستارٍ من سنابل مصطنعة تخفي تحتها مصائر دول، وقلوب رجال، وربما رأسَ ملك.

تقدّم الرجل إلى دار الحاكم العسكري للميناء، وهي بنايةٌ من حجارةٍ سوداء عتيقة، تتدلّى على جدرانها مشاعلُ نارٍ تصبغ الليل بلون الدم.

طرق الباب طرقاتٍ موزونة، لا هي بالعجلة المرتبكة، ولا بالبطء المريب، بل بوقع رجل يعرف أين يضع قدميه في متاهة السلطة.

أُدخل إلى قاعةٍ واسعة، تتدلّى من سقفها ثريا نحاسية، وتنتشر على جدرانها خرائطُ البحار ومسارات السفن وخطوطُ المدافع. وكان الحاكم العسكري رجلاً جاوز الخمسين، عركته الحروب حتى صارت ملامحه أشبه بخريطةٍ من الندوب والتجاعيد، غير أن عينيه بقيتا حادتين كحدّ السيف.

قال رجل المخابرات بصوتٍ هادئ :

جئتُ أطلب تصريحًا لسفينة غلالٍ متجهة إلى فرنسا.

رفع الحاكم رأسه ببطء، وحدّق فيه طويلاً، ثم قال :

إلى فرنسا؟ في زمن الحرب ؟

وساد صمتٌ قصير، كان أثقل من هدير المدافع البعيدة.

ثم أردف :

ليأتِ التاجران بنفسيهما. لن يخرج تصريحٌ من هذا الميناء حتى أستجوبهما عن سبب هذه المجازفة.

خرج الرجل، وفي قلبه لمعةُ قلقٍ سريعة، لكنه أخفاها بابتسامةٍ بارعة. كان يعلم أن اللعبة دخلت طورًا أخطر؛ فالحرب لا ترحم الوجوه، لكنها قد تفتضحها في المرآة.

X

بعد ساعة، دخل **توماس** و**دون**، متنكرين في هيئة تاجري غلال. كان كلٌّ منهما يضع لحيةً كثيفة، ويرتدي معطفًا خشنًا تفوح منه رائحة المخازن والقمح، غير أن النبل — مهما تلطخ بثياب العامة — يظل يشعّ من الوقفة والنظرة والنبرة.

وما إن وقعت عينُ الحاكم عليهما حتى نهض من مقعده كأن صاعقةً ضربته، وصاح في ذهولٍ صادق:

يا إلهي ! صاحبُ السمو الملكي وليّ العهد ! وصاحبُ السعادة الوزير لورد بكينام !

ساد صمتٌ كثيف، حتى إن صوت احتكاك المشعل بالحائط بدا كصرخةٍ في هذا السكون.

نظر **بكينام** إلى رفيقه، ثم انفجر ضاحكًا، ضحكةً عميقة تخفي وراءها دهشةً ممزوجةً بالإعجاب، وقال :

بحق السماء، كيف عرفتَنا؟

كان الضحك عند بكينام سلاحًا نفسيًا؛ كلما اقترب الخطر، أطلق ضحكته ليُربك خصمه، وليمنح نفسه ثانيةً إضافية يرتب فيها فوضى أفكاره.

ابتسم الحاكم في وقار الجندي القديم، وقال :

يا صاحب السعادة، لقد حاربتُ في جيشك يوم لاروشيل. وهناك وجوهٌ لا تنساها الذاكرة، لأن الأيام حفرتها بالنار.

هنا تقدّم **شارل** وليّ العهد خطوةً إلى الأمام.

كان شابًا يحمل في قسمات وجهه ذلك التناقض العجيب بين براءة العمر ووحشة المُلك. عيناه كانتا صافيتين، لكن في قاعهما ظلٌّ دائم من التوجس، كأن العرش ربّاه على أن يرى الخيانة قبل أن يسمعها.

قال بنبرةٍ حاول أن يجعلها عابرة :

وأنا؟ كيف عرفتني؟

أطرق الحاكم رأسه قليلًا، ثم قال بخشوعٍ امتزج بالإخلاص :

يا صاحب السمو، اسمح لي أن أقول إنك صورةٌ طبق الأصل من والدكم، صاحب الجلالة الملك. الدمُ الملكي لا يُخطئه بصرُ جنديٍّ خدم التاج عمره.

هنا اضطرب شيءٌ خفيٌّ في نفس شارل. لم تكن المسألة انكشافَ التنكر، بل كانت تلك المقارنة بأبيه. أبيه الملك، ذلك الرجل الذي كان يراه الأمةُ ظلَّ الله على الأرض، بينما يراه هو جبلًا من الواجبات والصرامة والقدر المحتوم.

مرّت في داخله خاطرةٌ خاطفة:

أأنا حقًّا صورته ؟ أم أنني مجرد شبحٍ يسير في الممر الذي حُفر له قبل مولده ؟ هل أنا رجلٌ يختار، أم اسمٌ يُورَّث ؟

هذا الغوص في ذاته جعله يبتسم ابتسامةً باهتة، ثم قال :

إذن، فانسَ تمامًا ما عرفت.

رفع الحاكم بصره إليه، وفي صوته خشيةٌ مخلصة:

أخشى يا صاحب السمو أن يكون بعضُ بحارة السفينة قد تعرّفوا على أحدكما.

هنا أطلق شارل ضحكةً قصيرة، لكن خلفها كان عقلُه يعمل كساعة حرب:

من رآهما ؟ من يشك ؟ من قد يبيع المعلومة ؟

في الحرب، لا تكون الخيانة دائمًا طمعًا، بل أحيانًا خوفًا، وأحيانًا مجرد حماقة.

قال في مرحٍ مصطنع يخفي قلقه :

ألم أقل لك يا عزيزي **جون سميث**، تاجر الغلال، إن هذه اللعبة المصطنعة لن تُجدي شيئًا ؟

كان يقصد بكينام، لكنّه قالها بمهارة المسرحيّ الذي يواصل دوره حتى بعد سقوط القناع.

قهقه بكينام، ثم مال على رفيقه وقال :

إذن يا عزيزي **نيكولاس ليفرون**، تاجر الخلال، لنضف إلى اللِّحيتين شاربين طويلين يقف عليهما الصقر !

ضحك الثلاثة، غير أن الضحك هذه المرة كان ستارًا هشًّا فوق قلقٍ ثقيل.

X

خرج الرجلان من دار الحاكم، والليل قد ازداد كثافةً، والبحر صار كمرآةٍ سوداء تعكس وجوهًا لا تريد أن تُرى.

مشى شارل صامتًا، وكان بكينام يعرف صمتَه جيدًا. إنه الصمت الذي يسبق انبثاق الأسئلة الكبرى.

قال الوزير بصوتٍ خافت :

ما الذي يدور في رأسك يا سمو الأمير ؟

توقّف شارل عند حافة الرصيف، ونظر إلى الأمواج تتكسّر على الأعمدة الخشبية، ثم قال:

أفكر في هشاشة كل شيء. عرشٌ كامل يمكن أن يسقط لأن جنديًا عجوزًا تذكّر وجهًا رآه في حرب قديمة.

ثم أضاف بعد لحظة:

أفكر أيضًا ، في نفسي.

كيف يستطيع المرء أن يهرب من وجهه ؟ كيف يتنكّر الإنسان من قدره ؟

ابتسم بكينام في حكمة رجلٍ خبر البلاط والحرب معًا:

يا سمو الأمير، يستطيع المرء أن يبدّل ثوبه، صوته، اسمه، حتى لحيته ، لكن الملامح التي تنحتها الروح لا يغيّرها شيء.

هزّ شارل رأسه، كأن البيت أصاب جرحًا خفيًا فيه.

قال في حوارٍ داخليٍّ عميق، كأنه يخاطب نفسه:

أنا لا أخشى الموت ، بل أخشى أن أموت قبل أن أعرف من أكون خارج التاج.

هل أحبُّ هذه المغامرة لأنها خدمةٌ للوطن، أم لأنها لحظةٌ نادرة أعيش فيها إنسانًا لا أميرًا ؟

وكانت هذه هي عقدته النفسية الكبرى:

أن يكون محبوبًا لذاته، لا لمنصبه. أن يُختبر في الخطر كرجل، لا كوريث.

X

عادوا إلى السفينة، وكانت المصابيح الزيتية تتراقص على سطحها، تُلقي ظلالًا متكسّرة على أكياس القمح، حتى بدت كأنها رجالٌ صامتون يراقبون المشهد.

اقترب أحد البحّارة، رجلٌ نحيل ذو عينين ثعلبيتين، وانحنى قائلًا:

سيدي التاجر، كل شيء جاهز للإبحار.

رمقه بكينام بنظرةٍ فاحصة.

في السياسة، كما في البحر، أكثر ما يُخشى ليس العاصفة، بل الموجة الهادئة التي تخفي دوّامة.

صعدا إلى السفينة، وبينما كانت الحبال تُفك، همس شارل :

هل تثق بالطاقم ؟

قال بكينام :

أثق في الذهب أكثر مما أثق في الرجال، وقد دفعت لهم ما يكفي ليصمتوا.

ابتسم شارل في مرارة :

لكن الذهب يشتري الألسنة كما يشتري الصمت.

قال بكينام :

لهذا أبقيتُ الخوف شريكًا له.

X

تحرّكت السفينة ببطء، وانشقت صفحة الماء تحتها، بينما ظلّ الميناء يبتعد شيئًا فشيئًا، حتى صار أضواءً مرتجفة في حضن الليل.

وقف شارل عند المقدمة، والريح تعبث بلحيته المستعارة، فمدّ يده يثبتها، ثم ضحك في سرّه من سخرية المشهد:

وليّ عهدٍ عظيم، يقف في البحر متخفيًا خلف لحيةٍ من صوف. لكن ما لبث أن عاد إليه ذلك التأمل الوجوديّ:

كم من الناس يعيشون العمر كلّه بلحىً مستعارة ؟ كم من الوجوه التي نراها ليست إلا أقنعةً اجتماعية، يفرضها الخوف أو الطموح أو الحب ؟

وهنا تجلّت له حكمةٌ نفسية اجتماعية:

إن البلاط الملكي ليس إلا ميناءً أكبر، والسفن فيه بشر، والأشرعة من مصالح، والرياح شائعات، والنجاة لمن عرف كيف يُخفي وجهه حتى يصل.

قال بصوتٍ مسموع كأنما يخاطب البحر :

ما أعجب الإنسان ! يخشى أن يُعرف، ويخشى أكثر أن يُنسى.

فأجابه بكينام من خلفه:

ولذلك قال الحكماء:

، **المرءُ بأصغريه: قلبِه ولسانه.** فإن ستر الوجهَ قناعٌ، فضحته الكلمة.

ثم أردف مبتسمًا :

فاحذر يا سمو الأمير أن تتكلم بلهجة الملوك أمام البحّارة.

ضحك شارل أخيرًا ضحكةً صافية، بدّدت شيئًا من توتره.

X

ومع انفتاح البحر أمامهم، شعر الأمير بأن الرحلة لم تعد مجرد عبورٍ إلى فرنسا، بل عبورٌ إلى منطقةٍ جديدة من نفسه.

كان يسمع في داخله صوتين :صوت الأمير الذي تربّى على الواجب والانضباط، وصوت الشاب الذي يفتنه المجهول ويغريه الخطر.

الأول يقول: احذر، فمصير المملكة في هذه الرحلة.

والثاني يهمس: تقدّم، فهنا تبدأ حياتك الحقيقية.

وبين هذين الصوتين، وقف شارل كما تقف السفينة بين موجتين؛ لا تستطيع الرجوع، ولا تملك إلا المضي.

ثم رفع رأسه إلى السماء، فرأى نجمةً وحيدة تشقّ السحاب،

ابتسم بكينام، وقال :

الآن فقط أراك مستحقًا للعرش.

فالتفت إليه شارل، وفي عينيه بريقٌ جديد:

بل الآن فقط ، أبدأ أن أستحق نفسي.

ومضت السفينة تشقّ المانش، تحمل فوق ألواحها قمحًا، وأقنعةً، ومصيرًا، ورجلًا بدأ يخرج من ظلّ أبيه إلى ضوء ذاته.

على صخور كاليه
لورد باكنغهام بين الحبّ والمكيدة في ظلال اللوفر

أبحرت بهما السفينة تشقُّ عباب المانش كأنها سهمٌ أطلقته يدُ القدر نحو الشاطئ الفرنسي، وكان البحر في تلك الليلة أشبهَ بمؤرخٍ عجوز يروي أخبار الأمم بصوتٍ متهدّج؛ ساكنًا في ظاهره، مضطربًا في أعماقه. جلس لورد باكنغهام، في هيئة التاجر البريطاني الشاب، يرمق الأفق بعينين يختلط فيهما بريق الطموح بقلق المغامرة، بينما كان رفيقه توماس—الأمير شارل متنكرًا—يضمُّ معطفه إلى صدره كأنما يستشعر برد السياسة قبل برد الريح.

ولم تلبث السماء أن انقلبت صفحةً سوداء. تراكمت السحب كجيوشٍ متربصة، وانطلقت الرياح تصفر كأنها نُذرُ الكرادلة والجواسيس، ثم هوت العاصفة على السفينة هويَّ القضاء المحتوم. تكسّرت الأشرعة، وارتجّ الخشب تحت أقدام الرجال، قبل أن تُلقى

السفينة بمن عليها إلى صخور كاليه القاسية، فتتناثر ألواحها كما تتناثر الأحلام ساعة تصطدم بصلابة الواقع.

في لهفةٍ مشوبة بحزم، صاح باكنغهام وهو ينهض من بين الحطام، والماء يقطر من شعره وثيابه:

يجب أن نغادر هذه المنطقة بأقصى سرعة يا عزيزي توماس.

نظر إليه توماس بعينين يملؤهما القلق، وقال:

وإلى أين من هنا؟

أجاب باكنغهام، وفي صوته تلك الثقة التي لا يولدها إلا قلب اعتاد اللعب على حافة الهاوية:

على الجياد إلى باريس.

تراجع توماس خطوة، كأن اسم المدينة كان أخطر من العاصفة ذاتها:

باريس؟ لو ظفر بنا ريشيليو لكانت كارثة !

ابتسم باكنغهام ابتسامة من يعرف أن الخطر هو الوجه الآخر للمجد، وقال:

لقد زرت باريس مرات يا صديقي، ولي بها صديق وفيّ، الدوق مون بازون؛ بروتستانتيّ يكتم عقيدته اتقاءً لبطش الكاردينال. سيؤمّن لنا المأوى، ويستأجر لنا رجلين وجوادين.

وأين قصر صديقك ؟

في ضاحية قريبة من باريس تُدعى نوجان، حيث تختبئ القصور بين الأشجار كما تختبئ الأسرار في الصدور.

X

وصل الصديقان إلى قصر الدوق بعد رحلة شاقة على صهوات الجياد، يرافقهما صمت الطرق الريفية ورائحة الطين المبتلّ. كان القصر شامخًا في سكونه، كأنما شُيّد ليقاوم الزمن لا ليسكنه البشر. أقاما فيه ثلاثة أيام في غفلة من عيون جواسيس ريشيليو، لكن السكون الخارجي لم يكن ينعكس على ما يدور في داخل باكنغهام.

كان الرجل، رغم رباطة جأشه، يعيش صراعًا نفسيًا حادًا؛ بين واجب الدولة الذي جاء من أجله، وبين نزوعه العميق إلى اختبار حدود نفسه. لقد كان من أولئك الرجال الذين لا تكفيهم النجاة، بل يطلبون من الخطر أن يعترف بهم.

جلس الدوق مون بازون مع ضيفه قرب المدفأة، تتراقص ألسنة النار بينهما كأنها شبح السياسة الأوروبية، وقال بصوت خفيض:

إنك حقًّا يا صديقي لورد باكنغهام أشدُّ المغامرين جسارة. ألا تعرف أن ريشيليو لا يتمنى في أحلى أحلامه إلا أن يظفر بك؟ عندها سيساوم برقبتك صاحب الجلالة ملك بريطانيا على كل ما لم يحصل عليه في حربٍ امتدت خمسًا وعشرين سنة.

ساد صمت قصير، لم يقطعه إلا صوت احتراق خشبة في الموقد. ثم قال باكنغهام، وكأنه يسأل نفسه قبل أن يسأل صديقه:

فبمَ تنصح يا عزيزي ؟

أجابه الدوق بجدية المؤرخ الذي يرى خيوط المصائر:

أن تتابعا السفر إلى الحدود الإسبانية الفرنسية قبل أن يعرف ريشيليو بوجودكما على الأرض الفرنسية.

لكن باكنغهام ضحك، ضحكةً خفيفة كانت تحمل من التمرّد أكثر مما تحمل من المرح، وقال:

ماذا؟ نتابع السفر دون أن نسمر ونرقص في قصر اللوفر مع حسناوات فرنسا ؟

اتسعت عينا الدوق دهشةً:

لورد ! هل أنت مجنون ؟

فردّ باكنغهام وهو يميل إلى الأمام ، كمن يضع خطةً على رقعة شطرنج:

بل أنا تاجر الغلال جون سميث، وهذا زميلي وشريكي توماس ليفرو. عليك باسم الصداقة، وباسم مغامرات الشباب أن تدبر لنا دعوة إلى حفلات القصر الملكي.

هزّ الدوق رأسه وقال:

كن منصفًا، بأي صفة أوجّه الدعوة إليكما ؟

ابتسم باكنغهام، وفي عينيه بريق ساخر:

تاجران بريطانيان لا تشغل السياسة ولا الحرب بالهما، ولا يريدان إلا الكسب، وإمداد المتحاربين بالغلال والبغال أيضًا ، والمغامرات العاطفية بالطبع. إنكم، معشر الفرنسيين، تعطفون على أصحاب القلوب الرقيقة المتعطشة إلى الحب.

ثم أضاف ضاحكًا:

هيه، ما رأيك ؟

تنهد الدوق، كمن يسلم أمره لقدَرٍ يعرف أنه لا يُردّ.

X

وجاءت الدعوة.

في قصر اللوفر، كانت الثريات تتدلّى كنجومٍ أُسرت في سقفٍ مذهّب، والشموع تفيض نورًا فوق الوجوه النبيلة، والموسيقى تنساب كعطرٍ مرئيّ بين القاعات. دخل، التاجران ، بملابس أنيقة، فكانا محطّ أنظار أميرات البيت المالك وسيداته، لما جمعاه من وسامة الشباب وأناقة السلوك.

غير أن عين باكنغهام ما إن استقرّت على الملكة آن حتى تبدّل العالم في داخله.

كانت الملكة الشابة الجميلة تتحرك في القاعة بهدوء المهابة، وفي وجهها ذلك الحزن النبيل الذي لا يخطئه من خبر القلوب. شعر باكنغهام، في لحظة خاطفة، أن كل مغامراته السابقة لم تكن سوى تمهيد لهذه اللحظة.

قال في نفسه: **ما الحب إلا سهمٌ لا يُرى ، إذا أصابَ الفؤادَ أعمى البصرا. ،**

كان يرمقها بعينيه الساحرتين، لا بعين السياسي فحسب، بل بعين الرجل الذي باغته الجمال فهزّ يقينه.

أما هي، فقد شعرت بنظراته، فالتفتت إليه التفاتةً خجولة، ثم أسرعت تصرف بصرها. كانت تلك اللفتة القصيرة كافية لتشعل في نفسه نارًا لا تطفئها الليالي.

ولما طلبها للرقص، تحرّك الكاردينال ريشيليو على الفور، كأنما استشعر الخطر قبل أن يُولد، فتدخل بحزم ليمنع الملكة من مراقصة، تاجر الغلال ، .

كانت عيناه الضيقتان تراقبان الرجل الغريب بحدس الصياد الذي شمّ رائحة الطريدة.

X

بعد أن عاد الصديقان إلى قصر الدوق، جلسا في غرفة عالية النوافذ، يطلان منها على أشجار السرو التي تتمايل في الليل.

قال توماس—وقد بدا عليه اضطرابٌ لا يخلو من عتاب:

جورج، أنت تعرضنا للخطر الداهم. لقد رأيتك تحاول مراقبة الملكة آن.

استند باكنغهام إلى المقعد، وأطرق قليلًا قبل أن يجيب. هنا انفتح النصّ النفسي في أعماقه؛ كان يدرك أنه لم يعد مدفوعًا بالسياسة وحدها، بل بشيء أشدّ وأعمق.

وما في هذا؟ إنها جميلة رقيقة ، ثم إنها قد تكون خير معين في إنجاح الخطة.

كيف ؟

رفع باكنغهام رأسه ببطء، وقال:

لأنها شقيقة الأميرة التي ستسافر إلى إسبانيا لخطبتها لك.

ثم صمت لحظة، قبل أن يهمس بما يشبه الاعتراف:

أتريد الحق؟ لقد وقعت في حب هذه الملكة، ولن أغادر باريس حتى أعرف ما في قلبها لي.

تأمله توماس طويلًا، وقال:

جورج، إنك لم ترها إلا الليلة، وهي أيضًا لم تراك إلا لحظة طلبتها للرقص. أتحسب أن ريشيليو قد تعرف علينا؟

تنهد باكنغهام، وقال بصوتٍ داخلي أكثر منه خارجي:

لا أدري ، لكنه أخبث رجل في فرنسا، كما أنه واقعٌ في هوى الملكة آن، التي لا تبغض أحدًا كما تبغضه.

هنا أخذ باكنغهام يغوص في نفسه، يحلل ما يشعر به كما يفعل عقلٌ نبيل اعتاد قيادة الجيوش لا قيادة القلب.

كان يدرك أن افتتانه بالملكة ليس شهوة عابرة، بل انجذابٌ إلى صورةٍ رمزية: امرأة محاصرة في بلاطٍ تحكمه الريبة، وهو رجل محكومٌ بالجرأة حتى التهور. كلاهما أسيرُ دورٍ أكبر من ذاته.

ومن لم يعانقه شوقُ المخاطر عاش عمره بين ظلٍّ وحائط. ،

قال توماس بحزم:

جورج، لنسافر في الغد نحو الجنوب الإسباني.

لكن باكنغهام نهض واقفًا، واتجه نحو النافذة، محدقًا في ظلمة الليل كأنه يفتش فيها عن ملامح الملكة.

ثم قال بصوتٍ عميق، فيه من العشق بقدر ما فيه من العناد:

شارل يا صديقي العزيز، ليس قبل أن أحاول مقابلة الملكة الجميلة، ولو لدقائق قليلة.

X

في تلك الليلة، لم يغمض له جفن.

كان يمشي في الغرفة جيئةً وذهابًا، تتصارع في ذهنه صورٌ ثلاث: وجه الملكة، وابتسامة ريشيليو الباردة، وخريطة أوروبا المشتعلة بالحروب.

تساءل في داخله:

أأنا أسعى لإنجاح مهمة سياسية ؟ أم أنني، لأول مرة، أسعى إلى نفسي ؟

لقد خبر باكنغهام النساء، والقصور، والمكائد، لكن شيئًا في نظرة آن اخترق طبقاته النفسية العميقة؛ لامس ذلك الجانب الذي يحنّ إلى النقاء وسط وحل السياسة.

هنا بدا الجانب الاجتماعي من شخصيته: رجل دولة تمثّل طبقتُه الأرستقراطية البطولة في الوعي الأوروبي، لكنه في الحقيقة إنسانٌ يبحث عن معنى يتجاوز الألقاب.

وترددت في ذهنه حكمة عربية كأنها خرجت من كتب الزمان:

من طلب المعالي سهر الليالي ، ومن طلب القلوب خسر الحساب.

ابتسم في مرارة.

نعم، لقد بدأ يخسر حساباته.

لكن بعض الخسارات هي التي تصنع التاريخ.

وهكذا، في باريس التي تتنفس المؤامرات كما تتنفس العطور، وبين قلبٍ خفق للحب وعقلٍ يحذّره من الهلاك، كان لورد باكنغهام يخطو أولى خطواته نحو قدرٍ سيجعله اسمًا يتردد في دهاليز السياسة كما في قصائد العشاق.

فما أخطر أن يلتقي الحبُّ بالطموح، في مدينةٍ يحكمها ريشيليو.

وما أصدق قول الحكيم:

القلبُ إذا حكمَ أعمى البصيرة ، والعقلُ إذا تجبّرَ أمات الحياة.

أما باكنغهام، فقد اختار أن يمضي بين العمى والحياة ، نحو الملكة، ونحو الخطر، ونحو فصلٍ جديد من أسطورةٍ لم تكتبها السياسة وحدها، بل كتبها القلب أيضًا.

في شَرَكِ باريس

لهيبُ القلب بين عروشِ الحرب وأقنعةِ العشق

كان الليلُ قد أرخى على باريسَ ستائره الثقيلة، فبدت المدينة العتيقة كأنها مخطوطةٌ رطبةٌ بالحبر والدمع، تتقاطع في أزقتها همساتُ الجواسيس مع وقع سنابك الخيل، وتمتزج فوق أسوارها رائحة المطر برائحة البارود.

هناك، في قصر الدوق جاستون دي مون بازون، جلس الشابان المتنكران في هيئة تاجرين إنجليزيين: الأمير شارل، وليُّ عهد بريطانيا، وصديقه الأثير لورد بكينغهام، الوزير الأول، وقد لبسا وجهيْن غير وجهيهما، واسميْن غير اسميهما: توماس ليفرون وجون سميث.

لكنّ الأسماء المستعارة، مهما أحكمت نسجها، لا تستطيع أن تُطفئ اللمعان الذي يشي بالنسب الرفيع، ولا الاضطراب الذي يفضح نار القلب.

كانت أوروبا يومئذٍ تقف على حدِّ السيف:

الكاثوليكية تتمنطق بصولجان روما، وفرنسا الكاردينال ريشيليو تذود عنها بدهاء الثعالب وقسوة النسور، والبروتستانتية الوليدة تتكئ على بريطانيا، تستمد منها السلاح والرجاء.

وفي خضم هذا اللهيب، كانت مهمة الأمير ورفيقه أخطر من مجرد رحلة سياسية؛ كانت محاولة لنسج صلحٍ من خيوط المصاهرة، بين عروسٍ كاثوليكية من بيت إسبانيا، وعريسٍ بروتستانتي من بيت إنجلترا.

قال الأمير شارل، وهو يحدّق في شعلة الموقد التي تتراقص كأنها أرواحُ القتلى في ميادين الإيمان:

كان الأولى بنا أن نغادر باريس إلى الحدود الإسبانية منذ الصباح. مدريد تنتظرنا، والسرية نصف النجاح. فما الذي يؤخرنا هنا ؟

لم يكن سؤاله سياسياً خالصاً؛ كان يختبر به صديقه، يفتش في صمته عن السر الذي لم يعد خافياً.

ابتسمت السيدة المرافقة، تلك الفرنسية اللماحة التي خبرت أسرار البلاط وقلوب الرجال، وقالت في نبرة مشوبة بمكرٍ رقيق:

معناه يا صاحب السمو أن باريس لم تعد محطةً في الطريق، بل صارت في قلب لورد بكينغهام وطناً مؤقتاً.

رفع الأمير بصره إلى صديقه، فرآه شاردًا، كأن روحه معلقةٌ في قاعة الرقص الملكية حيث لمح الملكة أول مرة.

قالت المرأة، وهي تتأمل شروده بعين العارفة:

لقد داعب الحب قلبه يا سيدي. إن عيني الملكة الفرنسية لم تكونا عابرَتيْن في تلك الليلة. كانت في الثامنة عشرة، في ربيع الحسن المترف، وهو في العشرين، يفيض فتوةً وكبرياءً. وما بين النظرة والنظرة تُكتب أقدارٌ تعجز عنها المعاهدات.

ساد صمتٌ ثقيل، لا يقطعه إلا حفيف النار.

أما بكينغهام، فكان غارقًا في داخله، في ذلك البحر النفسي الذي لا يراه أحد.

لقد حاول أن يقنع نفسه أن ما يشده إلى باريس ليس إلا ضرورة سياسية، فرصة لفهم مزاج البلاط الفرنسي، أو جس نبض الملكة في شأن المصاهرة الإسبانية.

لكن الحقيقة، التي كان يخشاها كما يخشى الفارس أن يرى جرحه في المرآة، أن قلبه لم يعد ملكه.

قال في نفسه:

أهذه هي الفتنة التي تحدث عنها الشعراء ؟ أهو سهمٌ لا يُرى لكنه يصيب أدق مواضع الروح ؟

لقد لمح في عيني الملكة شيئًا لم يجده في مجالس الحكم ولا في أروقة الدولة: إنسانًا وحيدًا خلف تاجٍ مرصع.

تمتم كأنما يخاطب ظله:

وما الحبُّ إلا للحبيبِ الأوّلِ ، كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى ، وحنينُه أبدًا لأوّلِ منزلِ

التفت إليه الدوق جاستون، وقد بدا على ملامحه قلق الصديق العاقل، وقال:

لقد أعددت لكما عربةً محكمةً، ستقلكما قبل الفجر إلى طريق الحدود الإسبانية. رجال ريشيليو يملؤون المدينة، وتأخير ساعة قد يكلّفنا الرؤوس.

هنا رفع بكينغهام رأسه، وظهر في عينيه ذلك البريق الذي لا يخطئه من عرف سلطان العشق.

يا صديقي العزيز جاستون، لن أغادر باريس قبل أن تترتب لنا دعوة أخرى إلى حفلة ملكية. لا بد من لقاء الملكة ، ولو لدقائق.

ضرب الأمير شارل بيده على ذراع المقعد في ضيق:

أتغامر بمصير إنجلترا من أجل نظرة ؟

فأجابه بكينغهام في هدوءٍ مزلزل:

أحيانًا يا سمو الأمير، تصنع النظرة ما لا تصنعه الجيوش.

ضحك جاستون ضحكةً قصيرة، ثم اقترب منهما وقال:

أخشى إن حدثتك عنها أن أزيدك ولعًا. الملك لويس الثالث عشر تزوجها كارهاً، فرضتها عليه أمُّه الوصية. وهو رجلٌ غريب الطبع، يأنس إلى الشبان ذوي الوجوه الصبيحة أكثر مما يأنس إلى النساء، وأقربهم إليه الكونت دي سان مار.

قال بكينغهام، وقد توتر صوته:

و الملكة ؟

تنهد جاستون و قال:

كما رأيتها في الحفل: جمالٌ يفيض، وصحةٌ تتألق، ولكن في عينيها حزنٌ دفين، كأنها وردةٌ نضرة نبتت في تربةٍ مالحة. هي زوجةٌ منبوذة في قصرها، غريبةٌ فوق عرشها، لا تجد من الملك إلا الجفاء.

سكت قليلًا، ثم أضاف بنبرة ذات مغزى:

ومن الطبيعي، في بلاطٍ كهذا، أن تتعلق القلوب بمن يراها حقًّا.

هنا انتفض الأمير شارل:

أتلمّح إلى أن لها خليلاً ؟

ابتسم جاستون ابتسامة الغامض، وقال:

باريس لا تعيش إلا على الشائعات، لكن الشائعة التي لا تموت غالبًا تخفي نصف الحقيقة. غير أني لا أرى في عينيها إلا وحدةً مريرة، ووحدة النساء الملوكات أخطر من كل المؤامرات.

سكنت الكلمات في صدر بكينغهام كأنها جمرٌ وُضع على حرير.

لقد شعر أن حزنه يلتقي بحزنها، وأن بين غربته في زيّ تاجر، وغربتها في زيّ ملكة، خيطًا خفيًا من التعاطف الإنساني العميق.

في تلك اللحظة، لم يعد يرى نفسه وزيرًا، ولا رجل دولة، ولا خصمًا لريشيليو؛ رأى شابًا ينجذب إلى روحٍ محاصرة مثل روحه.

قال في نفسه:

ما أشبه السجون وإن اختلفت جدرانها. أنا أسيرُ المهمة، وهي أسيرةُ التاج.

ثم نهض، واتجه نحو النافذة. كانت باريس تحت المطر تبدو كأنها تبكي.

قال بصوتٍ خافت:

أتعلم يا جاستون؟ إن أكثر ما هزني فيها ليس جمالها، بل ذلك الكبرياء الحزين. كانت تبتسم للقاعة كلها، لكن عينيها لم تبتسما إلا لحظة ، حين التقتا بعيني.

رد جاستون بحكمة رجلٍ خبر البلاط والنساء:

احذر يا صديقي، فإن القلوب في قصور الملوك لا تحب كما يحب الناس، بل تحب وهي تنظر خلفها إلى السيف والسم والوشاية.

ثم أردف ببيتٍ من الحكمة العربية كأنه يستدعي روح المشرق إلى مجلسهم:

ومن يجعلِ المعروفَ في غيرِ أهلِه ، يكنْ حمدُه ذمًّا عليه ويندمِ

ابتسم بكينغهام وقال:

بل لعل الحب نفسه معروفٌ لا نملك أن نمنعه عمن يستحقه.

هنا اقترب الأمير شارل من صديقه، وقد غلب عليه جانب الإنسان بعد أن أنهكه جانب السياسة، وقال بصوتٍ أكثر رفقًا:

أأنت واقعٌ في حبها حقًّا؟ أم أنها فتنة باريس العابرة؟

أجابه بكينغهام بعد صمتٍ طويل، كأنما ينتزع الجواب من أعماق روحه:

لست أدري إن كان حبًّا، ولكني أعلم أني منذ رأيتها لم أعد كما كنت. لقد كنتُ أحسب نفسي رجلًا تصنعه القرارات، فإذا بي أكتشف أن نظرةً واحدة قد تعيد صياغة الإنسان من داخله.

وهنا غاص السرد في نفسيته، في تلك الطبقات التي يندر أن يراها أحد:

كان بكينغهام، خلف وسامته المشرقة وجرأته السياسية، يحمل شعورًا دفينًا بالوحدة.

السلطة تحيطه بالناس، لكنها لا تمنحه رفيقًا يرى هشاشته.

النساء عرفنه منصبًا ووسامةً، لا روحًا.

أما الملكة، فقد لمح في انكسارها النبيل مرآةً لشيءٍ مكسور فيه هو أيضًا.

وهكذا صار شغفه بها ليس شهوة ظفر، بل رغبة خلاص، كأن إنقاذها من حزنها هو إنقاذٌ لجزءٍ من نفسه.

قال جاستون، قاطعًا هذا الصمت النفسي المشحون:

حسنًا، سأرتب لكما حضور مأدبةٍ صغيرة بعد غدٍ في جناح الملكة، بدعوى تكريم بعض التجار الأجانب. لكنها فرصة واحدة، بعدها يجب أن تغادرا.

تهللت ملامح بكينغهام، بينما بدا القلق على وجه الأمير.

قال شارل:

إياك أن تنسى أننا في قلب المصيدة. ريشيليو لا ينام، وعيونه في الجدران.

فأجابه جاستون:

بل في الأنفاس يا سمو الأمير. الرجل لا يحكم فرنسا، بل يحكم ظلالها.

في الخارج، دوّت ساعة نوتردام تعلن انتصاف الليل.

شعر الجميع أن الزمن نفسه يتآمر عليهم.

وقف بكينغهام، ومد يده إلى مقبض سيفه الخفي تحت معطف التاجر، ثم قال كمن يعلن قدره:

إن كان لا بد من الرحيل، فلأرحل بعد أن أرى تلك الروح الحزينة مرةً أخيرة. أما إن كان في الأمر هلاك، فليكن هلاكًا يليق بقلبٍ عرف لماذا يخفق.

فقال الأمير شارل، وهو يهز رأسه بين الإعجاب والقلق:

ما أعجب أمر البشر! نأتي لنعقد صلحًا بين المذاهب، فإذا بقلوبنا هي التي تدخل الحرب.

أجابه جاستون، وفي صوته خلاصة تجربة البلاطات والعصور:

يا سيدي، ما أشعل الحروب الكبرى إلا ما عجزت القلوب عن قوله في هدوء.

ثم أضاف كأنه يكتب حكمةً للتاريخ:

العرشُ يُدار بالعقل ، أما المصائرُ فتكتبها القلوب.

وساد الصمت من جديد.

لكن باريس، في تلك الليلة، لم تكن صامتة.

ففي مكانٍ آخر من المدينة، خلف جدرانٍ حمراء وستائر ثقيلة، كان الكاردينال ريشيليو يبتسم ابتسامة من عرف أن الفريسة لم تغادر المصيدة بعد.

أما بكينغهام، فلم يكن يدري أن الحب الذي حسبه نافذة نجاة، قد يكون الباب الذي سيدخل منه القدر.

عِفَّةٌ في اللُّوفر

حينَ تكسِرُ امرأةٌ شهوةَ الممالك

لم يكد ضحكُ جورج فيليرز، لورد بكينغهام يخبو حتى عاد يتردّد في أروقة القاعة الفرنسية العتيقة، كأنّه صدى سيفٍ اصطدم بدرعٍ في ساحة حرب. كان المساء يهبط على باريس ببطءٍ ملكيّ، وتنساب أضواء الشموع على جدران القصر كأنّها أنهار ذهبٍ مذاب، فيما بدت النوافذ العالية مثل عيونٍ تتلصص على أسرار الملوك والعشّاق.

قال ضاحكًا، وفي عينيه بريق الساخر الواثق من سطوته على القلوب:

عفّة ؟ في قصور ملوك فرنسا ؟

ثم أمال رأسه قليلًا، كأنّه يستعيد من ذاكرته تاريخ البلاط الفرنسي؛ ذلك العالم الذي يعرفه الجميع مسرحًا للرغبات المقنّعة، والابتسامات المسمومة، والعهود التي تُكتب بالحبر وتُمحى بالقبلات.

ابتسم الدوق جاستون دي مونبازون ابتسامة رجلٍ خبر دهاليز القصور، ورأى ما لا يُقال في المجالس الرسمية، ثم قال بصوتٍ خفيضٍ مشوبٍ بوقار التاريخ:

ألم أقل إنك لن تصدّق ؟

لا يجهل أحدٌ في هذه المملكة أنّ كثيرين من أمرائها، بل ومن ذوي الدم الملكي نفسه، طمعوا في قلبها قبل جمالها، وفي شرفها قبل ابتسامتها. لكنّها ردّتهم جميعًا خائبين، كأنّها قلعةٌ لا تُفتح إلا بمفتاحٍ لا يملكه بشر.

وسكت لحظة، كأنّه يزن وقع الاسم القادم، ثم أردف:

وأكثرهم طمعًا فيها، وأشدّهم شراسةً على قلبها ومخدعها، هو صديق صباك القديم ، الكاردينال ريشيليو.

تبدّلت ملامح بكينغهام. انطفأت ضحكته، وحلّ مكانها ذهولٌ حادّ. تمتم في شيءٍ من الاستنكار:

عدوّي الحالي ؟ من يصدّق هذا! رجل دينٍ يراود الملكة ؟

ثم مال بجسده إلى الأمام، وقد اشتعل فضوله كالنار في الهشيم:

وهي ؟

تنفّس الدوق بعمق، كأنّه يفتح بابًا على مأساةٍ لا تنتهي.

تردّه بعنفٍ يليق بامرأةٍ تعرف قيمة نفسها، رغم علمها اليقين أنّه هو من يوغر صدر زوجها الملك عليها، ويزرع في قلبه الشكّ كما يُزرع الخنجر في الليل. يفعل ذلك كلّه أملاً في أن تتعب، أن تنكسر، أن ترفع الراية البيضاء ، لكنّها لم تفعل.

ثم اقترب من بكينغهام أكثر، وقال بنبرة الحكيم الذي يرى المصير قبل وقوعه:

والآن، يا عزيزي جورج، يا لورد بكينغهام، أترى أن تتابع رحلتك مع صاحب السمو وليّ عهد بلادك إلى إسبانيا، في المهمة التي

جئتما من أجلها، بدلًا من مغامرةٍ عاطفية في قصر اللوفر ، خاسرة من بدايتها؟

ساد صمتٌ قصير.

في داخل بكينغهام، لم يكن السؤال سؤالَ سياسة، بل سؤالَ كِبرياء.

خاسرة ؟

هذه الكلمة وحدها كانت كافيةً لتوقظ فيه كلّ أشباح انتصاراته الماضية. رأى نفسه في ومضة: فارسًا لا يُهزم، عاشقًا لم تُغلق في وجهه الأبواب، رجلًا اعتاد أن تنحني له النساء كما تنحني السنابل لريح الصيف.

ضحك، ولكن هذه المرّة كانت ضحكته أعمق، مشوبةً بعناد النفس ونشوة التحدّي:

خاسرة ؟ إنني لم أخسر معركةً قط، يا عزيزي جاستون.

إلا أنّه، في دخيلة نفسه، كان يشعر بشيءٍ جديد.

لم يكن انجذابه إلى الملكة آن النمساوية مجرد افتتانٍ بجمالٍ يُروى في المجالس. كان في الأمر ما هو أعمق، ما هو أخطر:

امرأةٌ تقول، لا ، في عالمٍ اعتاد أن يسمع، نعم ، .

وهنا يكمن سحرها.

قال في سرّه:

أهي امرأة من لحمٍ ودم، أم أسطورةٌ تمشي في الحرير ؟ ، كيف استطاعت أن تحيا في هذا المستنقع الذهبي دون أن تتلطّخ ؟ ، أيُّ روحٍ تسكنها حتى يطمع فيها الجميع، ولا ينال منها أحد ؟

وفي تلك اللحظة، أقبل نحوهما الأمير شارل، وليّ عهد بريطانيا، بطلعته الشابّة التي تجمع بين النبل والاندفاع. كان يرتدي معطفًا أزرق مطرّزًا بخيوط الفضة، ويبدو كأنّه خرج لتوّه من لوحةٍ زيتيةٍ رسمها أحد أساتذة القصور.

نظر إليهما مبتسمًا، وقال:

فيم تتحدّثان يا ترى ؟

أجاب الدوق، وفي عينيه شيءٌ من التندّر:

يا صاحب السمو، صديقنا العزيز لورد بكينغهام لا يريد مغادرة باريس إلا بعد أن يقابل الملكة آن.

اتّسعت ابتسامة الأمير، ثم أطلق ضحكةً شابّةً مرحة:

مرحى ! ولمَ لا ؟

وأنا أيضًا أريد أن أقابل الأميرة هنريت، أخت لويس.

ثم أطرق قليلًا، كأنّه يستعيد ملامحها، وقال بنبرة حالمة:

إنها جميلةٌ جدًا ، وفي نظراتها وعودٌ صارخة.

أجل، سأذهب مع جورج.

نظر إليه بكينغهام، فرأى في وجهه شبابه الخاصّ منعكسًا: ذلك التوق البكر إلى المغامرة، ذلك الإيمان الساذج بأن القلوب تُفتح كما تُفتح المدن. لكنّ بكينغهام، بخبرته، كان يعلم أن قلوب النساء العظيمات ليست أبوابًا، بل متاهات.

X

في تلك الليلة، حين عاد إلى جناحه في القصر المخصّص للوفد البريطاني، لم يذق طعم النوم.

وقف عند الشرفة المطلة على باريس. كانت المدينة تبدو كأنها بحرٌ من الظلال والنجوم، تتعانق فوقه الأبراج والقباب. هبّت ريحٌ باردة، فحرّكت ستائر المخمل، كأنّ الليل نفسه يهمس له: احذر.

لكنه لم يكن من الرجال الذين يعرفون الحذر.

جلس إلى مكتبه، وأخذ يحدّق في لهب شمعةٍ وحيدة. كان اللهب يتراقص، مثل فكرةٍ لا تستقر.

قال في نفسه:

أأنا ذاهبٌ إلى امرأة، أم إلى قدري ؟ ما الذي يجذبني إليها ؟ جمالها ؟ مكانتها ؟ أم تلك المسافة الشاسعة بيني وبينها ؟

أهو الحبّ، أم لذّة المستحيل ؟ ثم ابتسم ابتسامةً خافتة، واعترف لنفسه لأول مرة:

ربما أريد أن أهزم في هذه المرّة ، كي أعرف أنني إنسان.

لقد سئم الانتصارات السهلة. سئم النساء اللواتي يسلّمن قلوبهن عند أوّل كلمةٍ معسولة. سئم أن يكون الرجل الذي لا يُردّ.

كانت الملكة آن تمثّل له امتحانًا نفسيًا وجوديًا:

هل يمكن للجمال أن يكون حصنًا للأخلاق ؟ ، وهل تستطيع امرأةٌ أن تحيا في قلب الفتنة دون أن تسقط ؟

تذكّر حكمةً قديمة كان أبوه يردّدها:

أصعب الحصون فتحًا ليس ما شُيّد بالحجارة، بل ما بُني بالعفّة والكبرياء.

وهنا، أحسّ أنّ المسألة تجاوزت الهوى. لقد أصبحت قضية كرامة بين روحين.

X

في الجهة الأخرى من اللوفر، كانت الملكة آن تجلس وحدها في مخدعها.

أمامها مرآةٌ كبيرة ذات إطارٍ ذهبي، لكنّها لم تكن تنظر إلى وجهها؛ كانت تنظر إلى عمرها الضائع في البلاط الفرنسي، إلى زواجٍ باردٍ تحكمه السياسة أكثر مما يحكمه القلب، إلى ريشيليو الذي يحاصرها بنفوذه كما يحاصر العنكبوت فريسته بخيوطٍ غير مرئية.

همست لنفسها:

ما أثقل أن تكوني ملكةً ولا تملكي قلبك.

كانت تعلم بخبر وصول بكينغهام. وبلغها من الوشاة ما يكفي لتفهم أنّ الرجل الشهير بوسامته وجسارته يريد لقاءها.

أغمضت عينيها. لم تكن تخشاه كرجل، بل كانت تخشى ما قد يوقظه وجوده في نفسها.

فهي، خلف التاج، امرأةٌ أيضًا. امرأةٌ عطشى إلى كلمةٍ صادقة في عالمٍ يبيع الكلمات. إلى نظرةٍ لا تطمع في جسدها، بل ترى وجعها.

لكنّها كانت تعرف أن العفّة ليست فقط امتناعًا عن الخطيئة، بل مقاومةٌ مستمرّة لضعف الروح.

ثم نهضت، واستعادت صلابتها الملكية.

X

في صباح اليوم التالي، كان اللوفر أشبه بمسرحٍ كبيرٍ قبل رفع الستار.

الخدم يروحون ويجيئون، الحرس ينتشرون في الممرات، والهمسات تتطاير كالعصافير المذعورة. كان الجميع يشعر بأن لقاءً ما يوشك أن يقع، لقاءً قد يغيّر ما بين بريطانيا وفرنسا، أو ما بين قلبين في الأقل.

قال الدوق لجورج وهو يرافقه في الرواق الطويل:

لا تنسَ أنك هنا مبعوثُ دولة، لا شاعرٌ في قصيدة غرام.

ابتسم بكينغهام وقال:

أحيانًا، يا جاستون، تكون القصائد أخطر من المعاهدات.

ثم أضاف، وعيناه تتجهان إلى أبواب الجناح الملكي:

السياسة تغيّر الحدود، أمّا امرأةٌ عظيمة فتغيّر التاريخ.

وهكذا مضى، وفي داخله صراعٌ بين رجل الدولة والعاشق، بين الطموح والافتتان، بين المجد والهاوية.

وكان قلبه يردّد حكمةً خفيّة:

من دخل قصور الملوك بعاطفته، خرج منها إمّا أسطورة ، أو ضحية.

ولم يكن يدري، وهو يخطو نحو المجهول، أن بعض النساء لا ينتصرن بالجمال، بل بالعفّة التي تفضح ضعف الرجال.

وأن أعظم الدراما ليست في أن يحبّ الرجل امرأةً مستحيلة ، بل في أن يكتشف، أمام نقائها، هشاشة نفسه لأول مرة.

ليلُ هنريت: همسُ القصور وظلالُ ريشيليو

في تلك الليلة التي انحنى فيها ضوء القمر على شرفات باريس كأنّه عاشقٌ قديمٌ يسرّ للأحجار بأسرار الملوك، دبّر لهما الدوق جاستون دي مون باوزون حضور حفلٍ مهيب في قصر الأميرة الشابة هنريت؛ وكان قصرها يومئذٍ أشبه بصفحةٍ مذهّبةٍ من كتاب التاريخ، تتعانق في هوامشه الرغباتُ والسياسة، وتختلط بين أسطره العطورُ بالمؤامرات.

لم يكن ذلك القصر مجرّد بناء من الرخام والذهب، بل كان كائناً حيّاً يتنفّس الأحاديث، وتنبض في جدرانه أصداء الضحكات المكبوتة، ووشوشات الوصيفات، وخطوات النبلاء الذين يمشون على بساط السلطة كما يمشي المرء على حدّ السيف.

التفتت إليّ صديقتي، وقد اتّسعت عيناها دهشةً حتى خُيّل إليّ أنّ فيهما بريق شمعتين مرتجفتين، وقالت بصوتٍ خافتٍ تخالطه الحيرة:

في قصرٍ من ؟ قصر أخت الملك ؟

ابتسمتُ ابتسامةً فيها شيءٌ من العارف بأسرار ذلك العصر، وقلتُ في تؤدة من يفتح نافذةً على زمنٍ آخر:

وأيُّ عجبٍ في هذا يا صديقتي ؟

تلك كانت حقبةً عجيبةً من تاريخ البلاط؛ حقبةً عاشت فيها الأميرات الملكيات على ما يشبه استقلال القلوب عن قيود التاج. كما يقول المثل العامي: حلَّت شعورهنّ؛ فكان لكل أميرةٍ قصرٌ خاصٌّ تقيم فيه، مع زوجها إن شاءت، أو في عزلةٍ أرستقراطيةٍ مع أحد خلّانها إذا افترقت عن زوجها دون طلاق.

وقد شاع هذا العرف حتى غدا من بديهيات المغازلة في أروقة النبلاء أن يبادر الرجلُ الأميرةَ بالسؤال:

مولاتي ، أمتزوّجةٌ أنتِ أم منفصلة ؟

ثم أتبعتُ حديثي بنبرةٍ أقرب إلى التأمّل الفلسفي:

ما أغربَ البلاط !

فيه تُقاس الفضيلةُ بموازين الهوى، ويُوزن الإخلاصُ بذهب النفوذ.

وكما قال الحكيم:، الناسُ أبناءُ ما يُحسنون، وأبناءُ ما يهوَون. ،

كانت الأميرة هنريت في ريعان الشباب، تتهادى في القاعة كما تتهادى القصيدة على لسان شاعرٍ مفتون. ينساب ثوبها الحريري بلون اللؤلؤ، وتتشابك في عنقها جواهر تُشبه قطرات الفجر. أمّا الحضور، فقد اصطفّوا في طبقاتٍ من النبل والرياء؛ وجوهٌ باسمة، وقلوبٌ تترصّد.

وفي تلك الأجواء الموشّاة بالموسيقى، جاءت الملكة إلى الحفل الذي أُقيم في قصر أخت زوجها الأميرة هنريت.

خفضتُ صوتي وأنا أروي لصديقتي ما جرى، كأنّي أخشى أن تلتقط الجدرانُ نفسها الخبر:

ذهبتْ في سريةٍ شديدة، حتى ظنّ من شهد الموكب أنّها زيارة عائلية بريئة، غير أنّ البراءة في قصور الملوك لفظٌ لا يعيش طويلاً.

ولئن غاب أمرُها عن عيون الساهرين، فإنّه لم يغب في نهاية الحفل عن جواسيس ريشيليو؛ أولئك الذين كانت لهم عيونٌ في الشموع، وآذانٌ في الستائر، وقلوبٌ لا تعرف الرحمة.

هنا توقّفتُ لحظة، وأخذتُ أصف ما يدور في عقل الشخصية الرئيسة، الدوق جاستون، الذي كان يقف يومها عند شرفةٍ عالية، يرقب الحفل بعين السياسيّ لا بعين المضيف.

كان يفكّر في نفسه:

أكلُّ هذا الجمال واجهةٌ فقط ؟ ، هل ضحكات الأميرات بريئةٌ حقاً، أم هي أقنعةٌ من حرير تخفي وراءها خرائطَ الولاء والخيانة ؟ ،

وهل أستطيع أن أحمي ضيوفي من عيون الكاردينال، أم أنّني دفعتُ بهم بيدي إلى فم الذئب ؟

كان يشعر بانقسامٍ نفسيٍّ حادّ؛ نصفه ابنُ أسرةٍ نبيلة يدين بالولاء للملك، ونصفه الآخر رجلٌ يعرف أنّ السياسة لا ترحم من يتأخّر عن فهمها.

X

وفي صباح اليوم التالي، وقبل أن تستفيق باريس تماماً من سُكر الليل، أسرع ريشيليو إلى الملك.

دخل عليه في مجلسه الخاص، بثوبه القرمزيّ وهيبته التي تجمع بين الوقار والتهديد.

انحنى ثم قال:

مولاي، هذا أمرٌ بالقبض على تاجرين بريطانيين نزلا باريس منذ أيام، وأقاما في قصر الدوق دي مون باوزون.

رفع الملك رأسه ببطء. كانت ملامحه هادئة، لكنّ في عينيه ناراً تعرف كيف تتأجّج.

يا عزيزي الكاردينال، وماذا ارتكب هذان التاجران حتى تُلقي القبض عليهما ؟

ردّ ريشيليو بصوتٍ باردٍ كحدّ النصل:

إنهما جاسوسان بريطانيان يا صاحب الجلالة.

ساد الصمت لحظةً، ذلك الصمت الذي يسبق العاصفة في قصور الحكم.

قال الملك، وقد عقد حاجبيه:

جاسوسان في ضيافة دي مون باوزون ؟ أهذا معقول ؟

كان السؤال في ظاهره استنكاراً، أمّا في باطنه فكان جرحاً شخصياً؛ فالدوق ابن خالته، وموضع ثقته القديمة.

أجاب ريشيليو، وهو يزن كل كلمة:

تستطيع يا صاحب الجلالة، بعد لقائهما في السجن، أن تستجوب دي مون باوزون في هذا.

هنا اشتعلت نفس الملك بقلقٍ دفين. لم يكن غضبه موجّهاً إلى التاجرين وحدهما، بل إلى الشعور بأنّ شيئاً ما يُحاك في الظلال بعيداً عن سلطانه.

قال بنبرةٍ متحفّزة:

الدوق دي مون باوزون ابن خالتي ، هل تتّهمه بالخيانة ؟

تردّد ريشيليو، لا خوفاً بل براعةً؛ فقد كان يعرف كيف يزرع الشكّ دون أن يقطف ثمرته بيده.

كلا بالطبع يا مولاي، ولكن إيواء تاجرين بريطانيين تحوم حولهما الشبهات ليس بالأمر الذي يمرّ بسهولة ودون تحقيق.

ثم مال قليلاً، وأضاف بصوتٍ يقطر دهاءً:

إنّ القرائن كثيرة يا مولاي. لقد دُعيا إلى الحفلات الملكية مرتين، والثالثة كانت في قصر صاحبة السمو الأميرة هنريت، وشهدتها صاحبة الجلالة الملكة. كان ذلك ليلة الأمس.

في هذه اللحظة، تغيّر وجه الملك كما تتغيّر السماء حين تزحف عليها سحابةُ شؤم.

دار في داخله حوارٌ مرير:

أأصبحتُ آخرَ من يعلم ؟ ، أختي ، زوجتي ، وابن خالتي ؟ ، هل خانني القصر الذي بنيتُه، أم خانني الذين سكنوه؟

كان الملك رجلاً مثقلاً بوحدة السلطة؛ فالعرش في ظاهره رفعة، وفي باطنه عزلةٌ موحشة.

قال في توجّسٍ وغضب:

وماذا يعني ذلك؟ هل تتّهم أختي وزوجتي بالتواطؤ مع ابن خالتي على خيانتي ؟

خفض ريشيليو رأسه قليلاً، وترك الصمت يتكلّم نيابةً عنه.

وكان الصمتُ أحياناً أبلغَ من الاتهام.

ضرب الملكُ بيده على ذراع المقعد، ثم نهض واقفاً، كأنّ القرار قد وُلد من رحم الغضب:

كاردينال، أريد أن أعرف ما تخفون عنّي جميعاً. أريد أن تستدعي الدوق دي مون باوزون لمقابلتي على الفور.

X

في تلك الأثناء، كان الدوق جاستون في قصره، يسير جيئةً وذهاباً في مكتبه الواسع، بين الخرائط والرسائل المختومة بالشمع الأحمر.

كان ذهنه يغلي:

هل انكشف الأمر ؟ ، أكان حضور الملكة خطأً لم أحسب عواقبه ؟ ، أم أنّ ريشيليو كان يترصّدنا منذ البداية ؟

ثم جلس، وأسند رأسه إلى يده، وغاص في تحليلٍ نفسيٍّ مرهق لنفسه قبل الآخرين.

لقد كان يعرف أنّه لم يخن الملك بالمعنى المباشر، لكنه أيضاً لم يكن بريئاً تمام البراءة؛ فقد سمح للغموض أن يدخل قصره، والغموض في زمن ريشيليو جريمةٌ قائمة بذاتها.

همس لنفسه:

السلطةُ ليست فيمن يملك الحقيقة، بل فيمن يسبق إلى روايتها.

وكانت تلك حكمته المرّة التي تعلّمها من دهاليز البلاط.

دخل عليه خادمه مذعوراً:

سيدي الدوق ، رسولٌ من القصر الملكي.

فهم جاستون كل شيء قبل أن تُقال الكلمة التالية.

مدّ يده إلى الرسالة، وفضّ ختمها ببطء، كأنّه يفضّ ختم قدره.

قرأ الاستدعاء، ثم ابتسم ابتسامةً غامضة وقال:

إذن بدأت المسرحية الأخيرة.

رفع بصره إلى المرآة الكبيرة، وتأمّل وجهه طويلاً؛ لم يرَ فيه ملامح النبيل الوسيم فقط، بل رأى رجلاً يقف بين ولاء الدمّ، ومصيدة السياسة، وهاوية التاريخ.

X

وخرج إلى مقابلة الملك، بينما كانت باريس كلّها تستيقظ على يومٍ جديد، لا تعلم أنّ مصير القصر، وربما مصير المملكة، قد يتغيّر في ذلك الصباح.

هكذا، في عالم القصور، لا يكون الخطر دائماً في الخيانة نفسها، بل في الشكّ الذي يسبقها؛ فالقلوب هناك لا تُقرأ بما تُبطن، بل بما يرويه عنها الخصوم.

وما بين هنريت، والملكة، والدوق، وريشيليو، والملك، كانت خيوط المشهد تتشابك كما تتشابك خيوط السجاد الشرقيّ:

زخرفةٌ فاتنة من بعيد، لكنّ كل عقدةٍ فيها تخفي شدّةً، وكل لونٍ يستر أثراً من الدم. وهكذا بدأ فصلٌ جديد من صراع القلوب والتيجان، حيث لا يكون الحبّ بريئاً، ولا القرابةُ حصناً، ولا الصمتُ نجاة.

بين دهاليز العرش وظلال القلب
حكاية الأمير المتنكر ومكر ريشيليو

مضى دي مون بازون في أروقة القصر الملكي بخطواتٍ موزونة، غير أن صدره كان يضجُّ بما يشبه قرع الطبول قبل المعارك. كانت الجدران العالية، الموشّاة بصور الملوك وأسلافهم، تراقبه كأنها شهودُ قرونٍ على ما يُقال همسًا في قصور الساسة، وما يُدبَّر خفيةً في سراديب الدول.

وكان يعلم، وهو يقترب من مجلس الملك، أن الكلمات في مثل هذه المواطن لا تُقال، بل تُوزَن بميزان الدم والمصير.

دخل، فانحنى انحناءةً تليق بجلال العرش، ثم رفع عينيه إلى الملك، فرآه جالسًا في مهابةٍ يختلط فيها السلطان بالقلق، وكأنما كان الليل قد ترك شيئًا من ظلاله على قسمات وجهه.

قال الملك بصوتٍ يحمل أثر ما بلغه من الكاردينال ريشيليو:

يا دوق دي مون بازون، لقد سبقك إليّ ريشيليو بخبرٍ عجيب. يقول إن في قصرك رجلين دخلا فرنسا في هيئةٍ مريبة، ويرجو القبض عليهما قبل أن يعبثا بأمن المملكة. فما قولك؟

تقدّم الدوق خطوة، وشعر في تلك اللحظة أن عليه أن يسير بين حدّين: حدّ الوفاء لضيفه، وحدّ النجاة من بطش السياسة. لكنه تماسك، وقال في رصانة النبلاء:

يا صاحب الجلالة، إن هذين الشابين من أعظم شخصيات بريطانيا، وقد لجآ إلى حماي. فبحق الدم الواحد الذي يجري في عروقنا، أتوسل إلى جلالتكم ألّا تُخفروا ضيافتي.

ساد صمتٌ قصير، ثم انفرجت شفتا الملك عن ضحكةٍ فيها مكر الملوك واختبارهم: يا عزيزي دوق دي مون بازون، لن أخفر ضيافتك إن أخبرتني بحقيقتهما. ولقد أيقنت في نفسي أنهما لم يدخلا بلادي جواسيس كما زعم الكاردينال.

هنا أحسّ الدوق بأن لحظة البوح قد حانت، وأن الكلمة التالية قد تغيّر مصير أوروبا بأسرها.

خفض صوته قليلًا، كمن يلقي بسرٍّ في بئر التاريخ، وقال:

مولاي، هل حدث من قبل في سجلات الأمم أن جاء وليُّ عهد بريطانيا إلى فرنسا متخفيًا للتجسس؟

انتفض الملك في مجلسه، واتسعت عيناه في ذهولٍ يكاد يلامس الصياح:

ماذا تقول؟ الأمير شارل، ابن جيمس الأول ؟

نعم يا مولاي، هو الأمير شارل بنفسه، ومعه جورج فيليرز، لورد بكنغهام.

وقف الملك فجأة، ومشى خطواتٍ في القاعة، كأن الفكرة نفسها أكبر من أن يستوعبها وهو جالس.

ثم قال بصوتٍ مضطرب بين الدهشة والفضول:

أيُّ هراءٍ هذا؟ وليُّ عهد بريطانيا ووزيرها الأول في قصرك متنكرين في هيئة تجّار ؟ لماذا ؟ ما وراء هذه اللعبة الغامضة ؟

رفع الدوق رأسه، وفي عينيه بريقُ صدقٍ ممزوج بالحذر:

أقسم لكم يا مولاي أنهما لا يريدان شرًّا بأحد. وجهتهما الحقيقية ليست فرنسا، بل إسبانيا.

توقّف الملك، واستدار إليه بحدة:

إسبانيا؟ بكنغهام هو مهندس السياسة البريطانية، فكيف يذهب إلى هناك ؟

تنفّس الدوق بعمق، ثم قال في نبرةٍ خافتة كأنها تحرس الحلم من الانكسار: يذهب خاطبًا يا صاحب الجلالة. وهذا سرٌّ أتوسل إلى جلالة ابن خالتي أن يكتمه. وأقسم لكم أنه لا يريد شرًّا ببلادنا.

ضحك الملك هذه المرة ضحكةً أكثر صفاءً، كأن السياسة تنحّت لحظةً ليظهر الإنسان في داخله: رحلة عاطفية إذن؟ يا للشباب! وزير بريطانيا وولي عهدها يخوضان هذه المغامرة، ويعرّضان نفسيهما لكل هذه الأخطار ، من أجل امرأة؟ ومن تكون؟

تردّد الدوق، لا خوفًا على نفسه، بل على قلب الأمير الشاب الذي رأى في الحب خلاصًا من حربٍ أنهكت الممالك.

ثم قال:

إذا كتمتَ عني يا مولاي، فهي أميرة من البيت الملكي الإسباني.

اقترب الملك أكثر، وبدت على وجهه ابتسامةُ من يعرف قيمة المصاهرة في ميزان العروش:

وما اسمها يا جاستون ؟

أطرق الدوق لحظة، ثم قال:

مولاي، إن علم ريشيليو باسمها أفسد كل شيء. لا تكسر قلب الشاب.

هنا ضحك الملك ضحكةً مشوبة بمرارةٍ دفينة، ثم قال في سخريةٍ لاذعة:

أكسر قلب من كسر قلب ريشيليو ؟ كأنّي لا أعلم أن الكاردينال يحاول غواية زوجتي الملكة! لكن بحق السماء ، لماذا ذهبت زوجتي إلى حفل الأمس في قصر أختي ؟

في هذه اللحظة، أخذ الدوق يقرأ ما وراء الكلمات؛ فالملك لم يكن يتكلم عن حفلةٍ عابرة، بل عن غيرةٍ دفينة، وعن شكٍّ يتسلل إلى القلب الملكي كما يتسلل السمّ إلى الكأس المذهّبة.

قال بهدوءٍ مقصود:

مولاي، أتحسبون أنكم ترفضون تزويج الأميرة هنرييت، أختكم، إلى ولي عهد بريطانيا؟

توقّف الملك، وبدت عليه المفاجأة أولًا، ثم أشرق وجهه كأن نافذةً فُتحت في جدار السياسة الكالح:

ـــ ماذا؟ أيريد ذلك حقًّا؟ شارل وليُّ عهد بريطانيا خير الأزواج لأختي. إن هذا كفيلٌ بأن ينهي تلك الحرب اللعينة التي يجهد ريشيليو في إطالة أمدها ، ولا أدري لماذا !

ثم سكت لحظة، وغاص في داخله.

كان يفكر في أخته هنرييت، في مستقبل فرنسا، وفي مجد اسم بوربون إن امتدّ نسبه إلى العرش البريطاني.

وفي أعماقه صوتٌ آخر يهمس:

أهذه فرصة السلام التي انتظرتها طويلًا ؟ أم فخٌّ آخر من فخاخ الكاردينال ؟ ،

قال الدوق:

أظن يا صاحب الجلالة أن الملكة تملك جواب ما جرى ليلة الأمس.

عقد الملك حاجبيه، ثم عاد إلى كرسيه، وقد ثقل عليه عبء القرار:

تبقى مشكلة ريشيليو. الرجل يطالبني بالقبض عليهما بتهمة التجسس. إنه مجنونٌ دون ريب! أألقي في السجن بولي عهد بريطانيا ووزيرها الأول ؟

قال الدوق بثقةٍ العارف بدهاليز الرجال:

وهل ذكر لكم الكاردينال حقيقة شخصيتهما ؟

كلا. زعم أنه لا يعرف. ولكن من المؤكد أنه يريد توريطي في هذا الأمر.

ثم رفع الملك رأسه، وقد استقرّ رأيه أخيرًا، وقال بلهجةٍ حاسمةٍ لا تقبل التأويل:

يا جاستون، بلّغ الأمير شارل أنني موافق على خطبته لأختي إذا تقدّم لها رسميًا. المهم أن يغادرا فرنسا بأسرع وقت، قبل أن يرتكب ريشيليو حماقةً جديدة من حماقاته.

X

خرج الدوق من مجلس الملك، وقلبه أخفّ مما دخل، غير أن عقله ظلّ مشغولًا بما وراء القرار.

كان يدرك أن القصور لا تُدار بالعواطف وحدها، وأن خلف كل ابتسامةٍ ملكية خنجرًا سياسيًا قد يلمع في أية لحظة.

أردف بحكمةٍ جرت على لسانه كأنها خلاصة العمر:

القلوب في قصور الملوك لا تنبض كما تنبض قلوب الناس؛ إنها تخفق على إيقاع الدول. ،

أما الأمير شارل، في قصر الدوق، فكان ينتظر الخبر في قلق العاشق الذي يترقب مصير قلبه ومملكته معًا.

وكانت نفسه تضطرب بين خوف الفشل، ورجاء أن يكون الحبُّ جسرًا تعبر عليه أوروبا من الحرب إلى السلام.

X

وهكذا، في تلك الليلة الباريسية الثقيلة، لم يكن الذي يُرسم مجرد زواج، بل كان فصلًا جديدًا من تاريخ القارة؛ فصلًا كُتب بالحبر الملكي، لكن مداده الحقيقي كان رجفة قلب شابٍ أحبَّ أميرةً خلف حدود العداوة.

وربَّ سعيٍ إلى قلبٍ واحد ، أصلح ما أفسدته جيوشٌ بأكملها. ،
ذلك هو سرّ التاريخ:
ليس دائمًا ما تصنعه المدافع، بل كثيرًا ما يغيّره عاشقٌ متنكر في زيّ تاجر.

على تخوم العروش والقلوب
رحلةٌ إلى مدريد بين دهاليز السياسة ولهيب الهوى

قالت، المشفقةُ على العشّاق، وقد غلّفت صوتَها مسحةُ أسىً يعرفه من خبر تقلّب القلوب بين أيدي الملوك:
كأنّ الدوقَ تعمّد أن يُوقع الملكَ الفرنسي في الحيرة.
ابتسمتُ ابتسامةَ العارف بخفايا البلاطات، وقلتُ بتمهّلٍ كأنّي أزيح ستارًا عن مشهدٍ مهيب:

أجل. كان وليُّ العهد شارل، وإن أُعجب حقًّا بالأميرة هنريت، لم يبلغ به الإعجاب مبلغَ العشق الذي يزلزل الروح ويُفقد المرءَ صوابه. لقد رآها بعين الأمير الذي يزن المصاهرة بميزان المُلك، لا بعين الشاعر الذي يرى في المرأة وطنًا آخر.

أمّا لورد بكينغهام، فذاك رجلٌ آخر؛ رجلٌ إذا أحبّ غرق، وإذا غرق لم يطلب نجاة. لقد هوى الملكة آن حتى صار اسمُها في صدره كجرس كنيسةٍ لا ينقطع رنينه. وقصّةُ حبّهما، يا صديقتي، ليست حديث مجلسٍ عابر، بل ملحمةٌ من نارٍ وحرير، تحتاج منّا إلى ليالٍ طويلة، وإلى قلوبٍ تحتمل وهج الاعتراف.

ثم استأنفتُ السرد، وكأنّ القافلة عادت تتحرّك في خيالي من جديد:

كان أهمّ ما في الأمر أنّ دوق دي مونبازون ما إن خرج من أروقة اللوفر الثقيلة، بما فيها من همس المؤامرات ورائحة الشمع المحترق، حتى أسرع إلى قصره، وقد بدا على وجهه ذلك القلق الذي لا يعرفه إلا من سار على حدِّ السيف بين ولاءين.

دخل على بكينغهام وشارل، فوجدهما ينتظرانه في صمتٍ يقطعه ارتجاف ضوء الموقد. قال بصوتٍ خفيض، لكنه حاسم كحدِّ النصل:

استعدّا للسفر إلى الحدود من فوركما؛ فإنّ ريشيليو يبيت لكما أسوأ مصير.

رفع بكينغهام رأسه، وفي عينيه بريقُ الرجل الذي تعوّد أن يواجه الأخطار بابتسامة:

والملك؟ ماذا قال لك ؟ وماذا قلتَ له ؟

تنهّد الدوق، وألقى عباءته على المقعد، كأنّه يُلقي معها ثقل الأسرار:

هذه قصةٌ طويلة، سأشرح لكما أبعادها ونحن في الطريق إلى الحدود الإسبانية. فالحيطان هنا لها آذان، وبعضُ الآذان في باريس ترفع ما تسمعه إلى الكاردينال قبل أن يكتمل النفس في صدورنا.

X

بعد ثلاثة أيّام، كانت القافلةُ الصغيرة تشقّ الريف الفرنسي تحت سماءٍ رماديةٍ حزينة، تضمّ وليَّ عهد بريطانيا، ووزيرَه الأول، وصديقهما دوق دي مونبازون.

كانت الخيولُ تلهث، والعجلاتُ تُحدِث على الطريق الموحل أنينًا يشبه أنين الأزمنة المتعبة. مرّوا بمدينة بايون الفرنسية، حيث تختلط رائحة البحر برائحة الحدود، ثم عبروا إلى بيداسوا الإسبانية، حيث بدا الهواء نفسه مختلفًا، كأنّهم دخلوا فصلًا آخر من كتاب التاريخ.

سألت، ، وقد استبدّ بها فضولُ الحكاية:

ولا يزالان متنكرَين في هيئة تاجري غلال ؟

قلتُ:

أجل، وما أبرع المسرحَ حين يكون خشبته طريقًا دولية !

كان شارل يلبس ثيابًا خشنةً لا تليق بدمه الملكي، لكنه كان يجد في هذا التنكّر لذّةً نفسيةً غريبة؛ لذّةَ الانفلات المؤقّت من قيود البروتوكول. أمّا بكينغهام، فكان يتقن لعب الأدوار كما يتقن لعب السياسة. لم يكن يخشى أن يطأ الطين بحذائه إن كان في آخر الطريق وجهُ امرأةٍ ملكية أو مجدٌ دبلوماسي.

ولم يفطن إلى حقيقتهما جواسيسُ الدون أوليفاريز، وزير الملك الإسباني فيليب الرابع.

وكان أوليفاريز رجلًا من طرازٍ نادر؛ سلطانُه في إسبانيا أشدُّ رسوخًا من سلطان ريشيليو في فرنسا، ونفوذُه يمتدّ في البلاط كما تمتدّ جذورُ شجرةٍ عتيقةٍ تحت الأرض. كان يعرف أنّ الدول لا تُحكم بالتاج وحده، بل بالعقول التي تقف خلف التاج.

قلتُ :

لم يكن في مخطّط لورد بكينغهام أن يخدع أوليفاريز، بل كان يأمل أن يجد فيه عونًا قويًّا لتحقيق المصالحة بين الكاثوليك والبروتستانت عن طريق المصاهرة.

لقد كان في أعماقه شيءٌ من الحالمين الكبار؛ أولئك الذين يريدون أن يصلحوا صدع العالم بقلب امرأةٍ ويدِ ملك.

ولذلك كان أول ما فعلاه حين بلغا مدريد هو الذهاب إلى السفارة البريطانية.

X

دخل الاثنان إلى مقرّ السفارة عند الغروب، والمدينة تشتعل بلون الشمس الأخيرة فوق القباب والكنائس.

وحين رآهما السفير، سير بريستول، وقف مذعورًا كأنّه أبصر شبحين خرجا من كتاب تاريخٍ لم يُكتب بعد.

قال، وقد تلعثم صوته الدبلوماسي المتمرّس:

يا إلهي ، من يصدّق؟ كيف أفلتما من براثن ريشيليو؟

ضحك بكينغهام تلك الضحكة التي تخفي دائمًا نصفَ سرّ:

لن تصدّق هذه أيضًا يا سير بريستول ، لقد أفلتنا بتواطؤٍ من الملك نفسه.

اتّسعت عينا السفير، وتمتم:

لويس الثالث عشر يتواطأ مع صاحب السمو ولي عهد بريطانيا؟ إذن فقد صدق من قال إنّ بين ريشيليو والملك عداوةً خفيةً عميقة.

هنا تدخّل شارل، وكان صوته أهدأ، لكنّه يحمل تأمّل رجلٍ بدأ يرى وجوه السياسة الحقيقية:

إنّ العروش، يا سير بريستول، لا تُبنى بالحجارة وحدها، بل بالأسرار. وما أكثر الأسرار التي تنام في مخادع الملوك.

أطرق بكينغهام لحظة، ثم قال بصوتٍ خافتٍ كأنّه يحدّث نفسه قبل أن يحدّثهم:

الملك يكره زوجته، ويهجر مخدعها ، وريشيليو مولعٌ كلّ الولع بالملكة، ولا يتمنّى إلا أن يدخل ذلك المخدع. هذا هو الصراع الخفي.

ثم رفع رأسه وأردف:

والآن، يا عزيزي سير بريستول، بمَ تنصح وقد عرفتَ الهدف من هذه الزيارة السرية لإسبانيا ؟

ساد صمتٌ قصير، كأنّ الجميع يصغي إلى وقع التاريخ وهو يقترب.

قال السفير بعد تفكير:

يا صاحب السعادة، ليس دخول القصر الملكي الإسباني بالسهولة التي دخلتما بها القصور الفرنسية. هنا تُقاس الخطوات بميزان الشك، وتُفتح الأبواب بمفاتيح الدم والنسب.

ابتسم شارل، وفي ابتسامته تلك المرّة ملامحُ الأمير لا التاجر:

لقد جئنا لندخل القصر الإسباني من بابه، كما يدخل الأشراف.

X

في تلك اللحظة، كان داخل شارل عالمٌ آخر لا يراه أحد.

كان يفكّر: أأنا أسيرٌ خلف قدري، أم أنا الذي أصنعه ؟

لقد خرج من إنجلترا أميرًا يطلب زواجًا سياسيًّا، لكنه في الطريق أخذ يشعر أنّه يطلب أكثر من ذلك؛ يطلب اعترافًا بذاته، يطلب أن يثبت لنفسه أنّه ليس ظلّ أبيه الملك، بل رجلٌ قادر على اقتحام المجهول.

كانت نفسيّتُه تتأرجح بين حماسة الشباب وخوف الوريث.

في أعماقه كان يسمع صوتَ الحكمة يقول:

ومن يتهيب صعود الجبال ، يعش أبد الدهر بين الحفر

أمّا بكينغهام، فكان صراعه أعمق.

خارجًا، يبدو رجل دولةٍ يخطّط للمصالحة بين المذاهب عبر المصاهرة.

لكن داخله كان ساحة حربٍ بين عقل السياسي وقلب العاشق.

كان يسأل نفسه في صمت: هل أنا هنا من أجل إنجلترا؟ أم من أجل أن أقترب خطوةً أخرى من العالم الذي تسكنه آن؟

وكان يدرك، بحدس العشّاق، أنّ القلوب أحيانًا تُلبسُ أطماعها ثوبَ المبادئ.

X

وفي تلك الليلة المدريدية، حيث ألقى القمر ضوءه الفضي على شرفات السفارة، دار بين الثلاثة حوارٌ عميق، يكشف طبائع الرجال حين يُحاصرهم المصير.

قال مونبازون:

السياسة يا سادة ليست إلا الوجه المهذّب للطمع.

ردّ شارل:

وربما كانت أيضًا الوجهَ الحكيم للحرب.

قال بكينغهام، وهو ينظر إلى الظلام خارج النافذة:

بل هي، في جوهرها، محاولةٌ يائسة لجعل القلوب تسير حيث تريد العروش.

فأجاب السفير بحكمة المجربين:

لكنّ القلوب، يا سيدي، لا تُقاد بالعروش، بل بالأقدار.

وهنا سكتوا جميعًا.

كان الصمت أبلغ من الكلام، كأنّ التاريخ نفسه جلس بينهم، شيخًا مهيبًا، يبتسم من مفارقة البشر:

ملوكٌ يطلبون الحب بالسياسة، وعشّاقٌ يطلبون السياسة بالحب.

ولمعت في ذهني حكمةٌ قديمة:

إذا كان الكلام من فضة، فالسكوت من ذهب، إلا في حضرة المصير، فإنّ الصمت اعتراف.

وهكذا انتهى المشهد، لا على باب القصر الإسباني، بل على بابٍ أعمق: باب النفوس التي توشك أن تدخل أخطر امتحاناتها؛ حيث يمتزج المجد بالعاطفة، ويصبح التاريخ قصةً يكتبها الخوفُ والرجاء معًا.

حين صافح الحبُّ ألسنةَ المدافع
حكاية شارل وماريا في ظلال العرش والحرب

في القرن السابع عشر، حين كانت أوروبّا تئنّ تحت سنابك الجيوش، وتشتعل خرائطها كرقعة شطرنجٍ حرّكتها أيدٍ جشعة من الملوك والكرادلة، جلس الملك فيليب الرابع في قصره المدريديّ كأنّه ضميرُ عصرٍ متعب؛ رجلًا شديد الحياء، رفيع الخلق، يعتنق أشرف

المبادئ في شأن علاقة الرجل بالمرأة، ويرى الزواج ميثاقًا روحيًّا قبل أن يكون تحالفًا بين تيجان.

كان الليل قد أرخى سدوله على القصر الملكي، والشموع تذوب في قناديل الفضة كأنها أعمارُ الرجال في زمن الحروب. وقف سير برستول، السفير الإنكليزي، مترددًا بين واجب الدبلوماسية وخوف الحقيقة، بينما كان فيليب يطيل النظر إلى لهب شمعةٍ وحيدة، كأنه يقرأ فيها ما تخفيه القارة من مصائر.

قال الملك بصوتٍ خفيضٍ يشفّ عن قلقٍ دفين:

ولكن ماذا يا مسيو برستول؟

تردد الرجل لحظة، ثم قال:

مولاي، لقد رفضتم من قبل أن تزوّجوا إحدى بنات البيت الملكي للأمير يوهان الدنماركي لاختلاف العقيدة، غير أنّي أرى أن البداية هذه المرّة يجب أن تكون مع دون أوليفاريز، الوزير الأول.

رفع الملك رأسه ببطء، وتحرّكت في عينيه ظلالُ الفكر:

المتزمت ؟

ابتسم السفير ابتسامةً حذرة:

نعم، لكنه قد لا يلتزم ذلك التزمت إذا كان في الأمر نهايةُ هذه الحرب الشرسة التي تأكل كلّ مكانٍ في القارة الأوروبية. والذي يذهلني حقًا هو عجز مخابراته عن معرفة تحركاتنا. الرجل يثق بي ثقةً حذرة، ولهذا يجب أن أطلعه على الحقيقة قبل أن يطلعه عليها رجاله، فذلك أدعى إلى انحيازه إلى صفّنا.

سكت الملك، لكن الصمت هنا لم يكن فراغًا؛ كان معمعةً نفسية في داخله.

لقد كان فيليب، رغم صرامة عقيدته، يشعر بوطأة الدم المسفوك في أوروبا. كان يسمع في لياليه صهيل الخيل البعيدة، وصراخ الأمهات اللواتي خطفت الحرب أبناءهنّ.

في أعماقه، كان يتساءل:

هل يجوز أن يكون الحبُّ طريقًا إلى السلام ؟ أيمكن لقلبين أن يفعلا ما عجزت عنه الجيوش والمعاهدات ؟

، رُبَّ قلبٍ أحيا أمّةً، ورُبَّ سيفٍ أفنى ممالك. ،

وكان هذا السؤال يطرق روحه طرقًا موجعًا.

أوليفاريز: عقل الدولة بين الكبرياء والضرورة

كان دوق أوليفاريز، الوزير الأول، رجلًا من معدنٍ قاسٍ صقلته دهاليز الحكم. ورغم تمسّك أمراء قشتالة بكبريائهم وأساليب فروسية العصور الوسطى، كان هو يريد حقًّا أن تنتهي حرب الثلاثين عامًا؛ تلك الحرب التي امتدت كجوعٍ تاريخيّ يلتهم الأخضر واليابس.

دخل السفير إلى مجلسه، وكان أوليفاريز جالسًا بين خرائط أوروبا ورسائل الجواسيس، كأنما يحمل القارة كلها فوق كتفيه.

قال الوزير في هدوءٍ نافذ:

يسعدني، يا صاحب السعادة صديقي سير برستول، أنك لم تُخفِ عني وصول الأمير وليّ العهد ولورد بكنغهام، مهندس السياسة البريطانية. كان من المنطقي أن يصل رجالي إلى هذا السر عاجلًا أو آجلًا.

انحنى السفير وقال:

أما وقد عرفت سبب هذه الزيارة السرية، فإني أضع الأمر كله بين يديك يا صديقي دون أوليفاريز.

قطّب الوزير حاجبيه، وأخذ يطالع وجه محدّثه كأنّه يقرأ ما وراء الكلمات:

لست أفهم ، لماذا لم يتقدم صاحب الجلالة الملك جيمس بالخطبة رسميًّا؟ لِمَ هذه السرية؟

اقترب السفير قليلًا، وخفّض صوته حتى صار أشبه بالاعتراف:

لأن مولاي الملك لا يريد أن يفسد الأمر إذا تدخل بابا روما أو ملك فرنسا. ثم، وبكل أمانة يا دون أوليفاريز، لا أحد بات يؤمن بالمصاهرات التي تتم بغير رضى العروسين. إنها وراء كل الفساد المستشري في قصور أوروبا: ملكاتٌ مهجورات، وأميراتٌ يهربن سرًّا مع من يخترن، بغير رضى الآباء والأمهات.

هنا تغيّر وجه أوليفاريز، كأن وترًا إنسانيًّا خفيًّا اهتزّ فيه.

فهو، رغم قسوته السياسية، كان يعرف أن القصور لا تخفي الذهب فقط، بل تخفي الدموع أيضًا.

قال ببطء:

أنت على حق.

ثم ساد صمتٌ قصير، كصمت ما قبل ميلاد قرارٍ خطير.

X

قال السفير، وقد شعر أن الباب انفتح:

لهذا رأى صاحب الجلالة الملك جيمس الأول أن يتيح لولي العهد الأمير شارل، ولصاحبة السمو الأميرة ماريا، شقيقة صاحب الجلالة الملك فيليب، الفرصة التي حُرم منها الكثيرون والكثيرات: فرصة اللقاء بغير أفكارٍ مسبقة. بعدها، من حق أيٍّ منهما الرفض أو القبول، في سريةٍ شديدة، دون حرج.

نهض أوليفاريز من مقعده، واتجه نحو النافذة حيث كانت مدريد تغطّ في ليلٍ ثقيل.

في داخله صراعٌ حاد:

السياسيّ فيه يرى مصلحةً تاريخية ، والأرستقراطيّ القديم يرى خرقًا للتقاليد ، والإنسان فيه يرى عدالةً طال انتظارها.

قال وهو لا يزال مولّيًا ظهره:

بحق السماء، لا تقترح أن أشترك في شيءٍ كهذا دون موافقة صاحب الجلالة الملك!

أجابه السفير سريعًا:

لم يخطر هذا ببالي قط.

استدار الوزير، وقد حسم أمره:

حسنًا، سأدبر الخطة المناسبة، وأخطرك بها بعد عرضها على صاحب الجلالة الملك.

فيليب الرابع: نفسٌ ملكية بين الحياء والواجب

حين عُرض الأمر على الملك فيليب الرابع، جلس طويلًا في خلوته.

كان يسمع في داخله صوتين: صوت الملك: إسبانيا لا تُدار بالعاطفة، بل بالعقيدة والهيبة. وصوت الإنسان: وهل الهيبة أسمى من سلام الأرواح ؟ وهل تُبنى الممالك فوق دموع النساء .

غاص في أعماق نفسه، في تلك المنطقة المظلمة التي لا يراها أحد من الملوك؛ منطقة الخوف من الخطأ، والرغبة في الصواب، والرهبة من التاريخ.

تذكر أخته ماريا: هدوءَها، ذكاءها، وملامحها التي تشبه صلاةً بيضاء.

وتساءل:

هل أملك الحق في أن أقرر قلبها ؟ أأنا أخوها أم ملكها فقط ؟

وكانت تلك اللحظة من أعمق لحظات وعيه النفسي؛ إذ شعر لأول مرة أن العروش قد تكون أقفاصًا مذهّبة.

وأخيرًا ، وافق الملك المتزمت فيليب الرابع.

شارل وماريا

حين كتب القلب ما عجز عنه المؤرخون

جاء الأمير شارل إلى مدريد متخفيًا، لكن قلبه كان ظاهرًا في عينيه.

وكانت ماريا تدخل اللقاء الأول كما تدخل القصائد: هادئةً، مهيبة، تشعّ وقارًا ونبلًا.

لم يكن اللقاء مجرد تفاهمٍ سياسي؛ كان اكتشاف روحين لبعضهما.

قال شارل وهو يتأملها:

سيدتي، ما كنت أظن أن في القصور من يشبه الصباح.

ابتسمت ماريا في حياء:

وما كنت أظن أن وليّ عهد إنكلترا يملك قلب شاعر.

قال:

بل رجلٌ أتعبته السياسة حتى جاء يبحث عن الحقيقة في عينيك.

هنا بدأ الحوار العميق بين الشخصيتين، حوارٌ يتجاوز المجاملة إلى كشف الجوهر.

قالت ماريا:

أخشى أن نكون مجرد صفحةٍ في لعبة الملوك.

أجابها شارل:

بل لعلنا الصفحة التي تُنهي اللعبة كلها.

كانت كل كلمةٍ بينهما تبني جسرًا فوق هاوية الحرب.

وكان كل صمتٍ مشتركٍ بينهما أبلغ من رسائل السفراء.

في داخل شارل، كان هناك صراع آخر:

وليّ العهد الذي يعرف واجبه ،

والرجل الذي وجد أخيرًا امرأةً لا يراها لقبًا بل قدرًا.

أما ماريا، فكانت تمضي إلى حبّها بوعيٍ مأساوي؛ تعرف أن القصور لا تمنح الحب مجانًا، بل تطلب ثمنًا من القلب والاسم والتاريخ.

ومن الحكمة: ، إذا صلح القلب صلحت الدنيا في عين صاحبها. ،

X

: الحبّ الذي صار تاريخًا

وهكذا كتب التاريخ الإسبانيّ والإنكليزيّ واحدةً من أعجب وأشرف قصص الحب في القرن السابع عشر:

قصة العاشقين شارل ولي عهد بريطانيا وماريا أخت ملك إسبانيا. قصةٌ بدأت همسًا في دهاليز السفراء، ثم صارت رجعًا في كتب المؤرخين. قصةٌ أثبتت أن الحب، حين يمرّ من بوابة الشرف، يستطيع أن يلامس ما تعجز عنه المدافع.

ففي زمنٍ كانت أوروبا تؤمن فيه بأن الزواج معاهدة، تجرأ قلبان على أن يثبتا أنه وعدُ روحٍ لروح.

ولعلّ أجمل ما خلّفته تلك الحكاية ليس احتمال السلام السياسي، بل هذا الدرس الإنساني الخالد:

قد تعجز الممالك عن صنع السكينة ، لكن قلبين صادقين قد يبدآنها.

X

في ظلال مدريد: لقاءٌ سرّي على حافة العرش والإيمان

في قلب مدريد، حيثُ كانت المدينةُ تتنفّسُ رهبةَ الإمبراطورية الإسبانية وتُخفي خلف جدران قصورها صليلَ السياسة وهمسَ القلوب، نزلَ المغامران البريطانيان في دارٍ منعزلةٍ أعدّها لهما الوزير الأول، دون أوليفاريز، بعنايةٍ تشبهُ حبكَ القدر لمشهدٍ لا ينبغي أن تراه العيون.

كانت الدارُ قائمةً عند أطراف المدينة، يلفّها صمتُ الحدائق اليابسة، وتُطوّقها أشجار السرو كأنها حرّاسُ أسرارٍ لا تُقال. في تلك الليلة، كان الهواءُ بارداً، لكنه محمّلٌ بحرارة ما يُدبَّر خلف الأبواب المغلقة. أما في الداخل، فقد جلس الأمير البريطاني، الأمير شارل، في مقعدٍ وثير، غير أن نفسه لم تعرف وثيراً ولا سكوناً.

كانت عيناه شاردتين في لهب الموقد، كأنما يرى في النار صورةَ أميرةٍ لم يلتقها بعد، وصدى مملكةٍ قد تربح زواجاً وتخسر عقيدة.

قالت،، وقد مالت نحوي بنبرةٍ يختلط فيها فضولُ المؤرخ بحرارة المرأة التي تعشق الحكايات:

أيعني هذا يا صديقي أن فيليب الرابع الكاثوليكي وافق على أن تخطب أخته للأمير شارل، ولي عهد بريطانيا البروتستنتي؟

ابتسمتُ ابتسامةً بطيئة، كمن يفتحُ بابَ قرنٍ كاملٍ من المكائد، وقلت:

لم تكن الأمورُ في بلاطات الملوك تُقاس بالرغبة وحدها، يا صديقتي. التقاليدُ المرعيةُ كانت تقتضي، إذا أراد فيليب أن تمضي الخطبة، أن تُرفع أولاً إلى بابا روما، بابا روما، ليستصدر منها مباركةً تليقُ بمقام العروش ومقام السماء معاً.

قطّبت حاجبيها، ثم قالت في دهشة:

ومن قال إن بابا روما سيوافق؟ لقد رفض في غضبٍ عشراتٍ من تلك المشروعات !

هنا أطرقتُ لحظة، كأنني أُنصتُ إلى وقع خطوات أوليفاريز في دهاليز القصر، ثم قلت:

لهذا بالذات رأى أوليفاريز، الوزيرُ الحكيم، الرجلُ الذي لم يكن فيليب يُبرم أمراً دونه، أن يقفز فوق موافقة البابا ، مؤقتاً على الأقل.

كانت تلك هي عبقريته السياسية: أن يجعل المستحيلَ ممكناً، ولو إلى حين؛ أن يؤجلَ العاصفة حتى يرسو المركبُ على المرفأ.

ولما عرض الأمر على الملك، أقرّه فيليب الرابع، لكنه اشترط شرطاً بالغَ الغرابة، يكشفُ عن نفسٍ ملكيةٍ مأخوذةٍ بالهيبة والحذر:

لقد جاء وليُّ عهد بريطانيا سرّاً، إذن فلتكن المقابلة بينه وبين أختي سرّاً أيضاً.

في تلك اللحظة، نستطيع أن نغوص في أعماق عقل الملك نفسه؛ كان فيليب، خلف جلال التاج، رجلاً ممزقاً بين سلطانين: سلطان الكنيسة، وسلطان الدولة. كان يعلم أن أخته ليست امرأةً فحسب، بل رمزٌ كاثوليكي، قطعةٌ من شرف آل هابسبورغ، وأيّ اقترابٍ منها دون رضا روما قد يوقظ أوروبا على فتنة.

ومع ذلك، كان في داخله شيءٌ آخر: فضولُ الأخ، وربما حنينُ السياسي إلى سلاحٍ قد يُصنع من زواج.

فقال أوليفاريز، بصوته الرزين الذي يشبهُ السيفَ إذا عاد إلى غمده:

كما تريد يا صاحب الجلالة، وإنه ليسعدني أن أعرف تعليماتكم بشأن حدود تلك السرية؟

اقترب الملك من النافذة، وأزاح الستار قليلاً. كانت مدريد غارقةً في الليل، والقمرُ معلقٌ فوق الأبراج كعينِ جاسوس. ثم قال:

أن يتقابلا مصادفة ، كأن الأمرَ لم يسبقه تدبيرٌ ولا ترتيب.

ما أبرع الملوك في اختراع كلمة المصادفة حين يريدون للقدر أن يلبسَ ثوب السياسة.

قال أوليفاريز، وقد لمعت في عينيه شرارةُ التدبير:

وصاحبة السمو الأميرة؟ هل تظل جاهلةً بحقيقة المقابلة التي ستتم مصادفة؟

استدار الملك، وعلى شفتيه ظلُّ ابتسامةٍ خافتة:

كلا، بالطبع. ستتكفّل صديقتها العزيزة ووصيفتها الدوقة توفيا بإطلاعها على الحقيقة، وتخبرها بأنني أريد أن أعرف رأيها في العريس فورَ إتمام المقابلة ، بمصادفةٍ طبعاً.

هنا يشفُّ المشهدُ عن بعدٍ نفسيٍّ أخّاذ: الملك لا يسأل عن رأي الدولة، بل عن رأي أخته. خلف الحديد الملوكيّ، كان ثمة اعترافٌ صامت بأن قلب المرأة قد يحسم ما عجزت عنه المجالس.

ولعلّ الأميرة، في جناحها الموشّى بالذهب والشموع، قد شعرت بتلك الليلة أن الريح تحمل إليها قدراً من وراء البحر. ربما وقفت أمام مرآتها الطويلة، تتأمل وجهها لا بوصفه وجه امرأة، بل بوصفه صفحةً قد تُكتب عليها معاهدةُ سلام أو شرارةُ حرب.

وفي داخلها دار حوارٌ خفي:

أأنا أخت الملك أم امرأةٌ يحقّ لها أن ترى الرجل قبل أن تهبه مستقبلها ؟ أأخافُ دينه، أم أخافُ أن يميل قلبي إليه؟

أما أوليفاريز، فقد خرج من المجلس وهو يفكر بعقل رجل دولة يعرف أن التاريخ تصنعه أحياناً لحظةُ نظرةٍ واحدة. كان يدرك أن، المصادفة ، التي رتّبها قد تغيّر وجه أوروبا.

وفي صباح اليوم التالي، جرى الإعداد للمشهد كأنه فصلٌ من مسرحٍ ملكيّ بالغ الإحكام: ممرٌّ في حديقة القصر، نافورةٌ تتكسّر عليها الشمس، أميرةٌ تمشي برفقة وصيفتها، وأميرٌ يمرّ من الجهة الأخرى، من غير ترتيب ، .

أيُّ عبقريةٍ هذه التي تجعل التدبير يبدو بريئاً كقطرة مطر؟

قالت صديقتي، وقد استغرقتها الصورة:

ما أشدّ درامية هذا اللقاء!

فقلت:

لأن التاريخ، يا صديقتي، ليس تواريخَ وحروباً فحسب، بل هو أيضاً قلوبٌ ترتجف خلف التيجان.

ثم أضفتُ، كمن يذيّل الحكاية بحكمةٍ من زمن الملوك:

إذا اجتمع الهوى والسياسة، ضاع الصدق بينهما إلا في لحظة عين.

ولعلّ أبلغ ما يختصر تلك الليلة قول الحكيم: السرُّ إذا جاوز الاثنين شاع، وإذا دخل القصر صار قدراً.

وهكذا تمّ كلُّ شيءٍ كما أراد الملك.

سرٌّ يلبسُ ثوبَ المصادفة، ولقاءٌ يبدو عابراً، بينما كانت أوروبا كلُّها تنتظر ما ستقوله عينُ أميرةٍ لوليّ عهدٍ جاء متخفياً بين ظلال مدريد.

على ضفاف المانثاريس

لقاءٌ دبّره العقلُ وفضحه القلب

كان الكونت أوليفاريز، في ظاهره، رجلاً من صخر السياسة؛ وجهٌ لا يلين، ونظرةٌ تزن الرجال كما تُوزَن الدول في خرائط الملوك، ولسانٌ لا ينطق إلا بما يخدم التاج والعقيدة. غير أن تلك الصلابة التي أرعبت خصومه وأدهشت حلفاءه كانت تخفي في أعماقها قلباً آخر؛ قلب شاعرٍ خبر هشاشة الإنسان، وعرف أن الممالك ـــ مهما علت أسوارها ـــ كثيراً ما تغيّر مصائرها خفقةُ قلب، أو رعشةُ يد، أو نظرةٌ عابرة على ضفاف نهر.

ولذلك، حين أرخى الليل سدوله على مدريد، وهدأت خطوات الحرس في دهاليز القصور، خرج أوليفاريز في سريةٍ شديدة، كأنما يمضي إلى موعدٍ مع قدرٍ لا مع سفير. كانت عربته السوداء تشق الأزقة الحجرية في صمت، حتى توقفت أمام مبنى السفارة البريطانية، حيث كان السفير ينتظره في غرفةٍ تتراقص فيها ألسنة الشموع، فتزيد الوجوه غموضاً والنيات التواءً.

تقدّم أوليفاريز بخطواتٍ وئيدة، وفي عينيه ذلك البريق الذي لا يظهر إلا حين تتشابك السياسة بالخيال.

قال بصوتٍ منخفض، كأن الجدران نفسها قد تتجسس عليه:

جئتُ أقترح أمراً لا يشبه البروتوكول، لكنه قد ينقذ الخطبة قبل أن تولد.

رفع السفير البريطاني حاجبيه، ثم قال:

كنت أودّ أن تتم المقابلة في حفلٍ رسمي يا صاحب السعادة، فذلك أليق بمقام ولي العهد وبمقام أخت الملك. ومع هذا، فإن لقاءً كهذا قد يرضي صاحب السمو، وآمل ألا يعترض عليه لورد بكينام

ابتسم أوليفاريز تلك الابتسامة التي لا يُعرف أهي رضا أم دهاء، ثم قال: سيدرك لورد بكينام دون شك أن الهدف من لقاء المصادفة هذا هو اتقاء أي محاولات من السفير الفرنسي لإفساد الخطبة قبل تمامها. إن الفرنسيين لا ينامون حين يكون الزواج سياسة، ولا يسكتون حين يكون الحب جسراً بين عرشين.

سكت السفير لحظة، ثم مال بجسده إلى الأمام:

ثم ماذا بعد لقاء المصادفة؟

أجاب أوليفاريز وهو يمرر أصابعه على حافة الطاولة:

إذا راق كلٌّ من الأمير والأميرة للآخر، فلن يبقى ما يمنع من إقامة حفل استقبال رسمي، تُدعى إليه الأميرة بلا حرج، وتُفتح الأبواب بعد ذلك أمام تفاهمٍ أكبر بين القلوب والتيجان.

كان يتحدث كمن يكتب فصلاً من رواية، لا كباحثٍ في موازين القوى. فقد كان يدرك في أعماقه أن التاريخ، مهما بدا مصنوعاً بقرارات المجالس، إنما يُدفَع أحياناً بدفقة شعورٍ إنساني صادق.

X

وفي اليوم المحدد، تنفّس الصباح هواءً ربيعياً خفيفاً، وكانت السماء فوق مدريد صافية كأنها صُقِلت لهذا المشهد وحده.

خرجت من السفارة البريطانية عربةٌ أنيقة مغلقة، يكسوها السواد اللامع وتجرّها جيادٌ بيضاء. جلس فيها السفير، وإلى جواره ولي العهد الأمير شارل، وفي المقابل صديقه الأقرب لورد بكينام، الرجل الذي كانت عيناه لا تستقران على منظر جميل إلا وطاردته الرغبة.

كان شارل صامتاً، يحدّق من نافذة العربة إلى شوارع مدريد. وفي داخله كان حوارٌ آخر يدور، أكثر عمقاً من كل ما يقال.

أهذه هي الأميرة التي سيُطلب مني أن أربط بها مصير بريطانيا؟ أأنا ذاهبٌ لأرى امرأة، أم لأرى وجهاً آخر للعرش؟ وهل يمكن لقلبٍ نشأ في برد إنجلترا أن يجد دفأه في شمس إسبانيا؟ ،

أما بكينام فكان أكثر خفة، يبتسم كمن يذهب إلى مغامرةٍ عاطفية، لا إلى خطوةٍ دبلوماسية.

وفي الجهة الأخرى من المدينة، كانت عربة أخرى تسير نحو شاطئ نهر المانثاريس، تحمل الأميرة ماريا ووصيفتها الدوقة توفيا، ابنة دوق أوليفاريز.

كانت ماريا تجلس في وقارٍ ملكي، غير أن أصابعها كانت تعبث بطرف منديلها في قلقٍ خفي.

قالت توفيا ضاحكةً، وقد لاحظت اضطرابها:

كأننا في قصة حبٍ من حكايات الشعراء يا مولاتي، لا في تدبيرٍ سياسي من صنع أبي.

ابتسمت ماريا ابتسامةً باهتة وقالت:

بل نحن في قلب التاريخ يا توفيا، والتاريخ كثيراً ما يتنكّر في ثوب الرومانسية.

ثم همست في سرها:

أتراني سأرى فيه الرجل، أم سأرى إنجلترا كلها في ملامحه ؟ وهل يستطيع الغريب أن يفهم وحدة أميرةٍ حاصرها الذهب كما يحاصر السجنُ السجين ؟ ،

التقت العربتان عند منحنى النهر، كما لو أن القدر نفسه كان يقود الخيول.

ترجّلت ماريا وتوفيا أولاً، ومشتا على العشب المبلّل بندى الصباح. كانت الأشجار تصطفّ كحرسٍ من الطبيعة، والنسيم يحمل رائحة الماء والزهور البرية.

وبعد لحظات، نزل الأمير شارل ولورد بكينام من عربتهما، وسارا في الاتجاه نفسه.

ثم حدثت المصادفة المدبّرة.

توقفت العيون أولاً، قبل أن تتقدم الأقدام. كان شارل يرى أمامه امرأةً ينساب الوقار في حركتها كما ينساب الضوء على صفحة النهر. لم تكن ماريا جميلةً فحسب، بل كانت تحمل تلك الهيبة التي تجعل الجمال أكثر رهبة.

انحنى الأمير قائلاً:

يبدو أن الحظ ساقنا إلى أجمل مصادفة شهدتها مدريد.

أجابته ماريا، وفي صوتها موسيقى خافتة: أو لعل مدريد أرادت أن تختبر صدق النوايا قبل أن تفتح أبواب قصورها.

تدخل بكينام، وقد وقعت عيناه على توفيا:

إن كان هذا من تدبير الحظ، فهو أكثر شاعرية مما توقعت.

نظرت إليه توفيا بعينين فيهما ذكاءٌ ومرح، وقالت:

بل هو من تدبير رجالٍ يحبون المسرح يا سيدي، ويكتبون التاريخ كما يُكتب السيناريو.

ضحك بكينام، لكنه شعر في تلك اللحظة بشيءٍ نادر: انجذابٍ لم يكن محسوباً. لقد كانت توفيا شابةً يلتقي في وجهها بريق الشباب بذكاء البلاط، فشعر أن في هذا اللقاء خيطاً آخر من الحكاية.

أما شارل وماريا، فقد ابتعدا قليلاً يسيران بمحاذاة النهر.

قال شارل:

حدثوني عن إسبانيا كثيراً، عن قوتها، عن تدينها، عن عظمة ملكها. لكن أحداً لم يحدثني عن هذا السكون الذي يجعل المرء يصغي إلى نفسه.

نظرت إليه ماريا مطولاً، كأنها تحاول أن تقرأ ما وراء الكلمات:

لأن الدول تُعرَف من مجالسها، أما الأرواح فلا تُعرَف إلا في الصمت.

هنا شعر شارل أن وراء هذه الأميرة عقلاً يوازي نسبها، وروحاً لا تختصرها ألقاب القصور.

جلسا على مقعدٍ حجري قرب الماء، وكانت لحظة الصمت بينهما أبلغ من خطب السفراء.

في داخله، كان شارل يحدث نفسه:

هذه ليست مجرد أميرة تُعرض عليّ في صفقة ملكية. ثمة حزنٌ نبيل في عينيها، وثمة قوةٌ هادئة تجعلني أنسى أنني جئتُ ممثلاً للتاج. ،

أما ماريا، فقد كانت تغوص في دهشةٍ نفسية عميقة:

ليس في ملامحه غطرسة الورثة، بل شيءٌ من التردد الإنساني الجميل. كأنه رجلٌ يبحث عن ذاته داخل الثوب الملكي. ،

قالت فجأة:

هل تخيفك السلطة يا صاحب السمو؟

تفاجأ بالسؤال، ثم قال بصراحة:

السلطة لا تخيفني بقدر ما يخيفني أن أفقد نفسي تحت أثقالها.

ابتسمت ماريا، وكانت تلك أول ابتسامةٍ صادقة ترتسم على شفتيها منذ بداية اللقاء:

إذن نحن متشابهان. أنا أيضاً أخشى أن أتحول إلى رمزٍ بلا روح.

ولربَّ وجهٍ في الممالكِ ضاحكٍ والقلبُ فيه من الأسى يتقطّعُ

X

وفي الجانب الآخر، كان بكينام قد انشغل بتوفيا انشغالاً كاملاً.

قال لها:

أأنتِ ابنة أوليفاريز حقاً؟ ما كنت أظن أن السياسة تلد هذا القدر من الرقة.

أجابته ضاحكة:

بل لعل الرقة هي الوجه الذي تخفيه السياسة عنكم.

نظر إليها طويلاً، ثم قال بنبرةٍ أقرب إلى الاعتراف:

أخشى أن يكون هذا اللقاء أخطر عليّ من كل معارك أوروبا.

فقالت بحكمةٍ ناعمة:

أخطر ما في الحياة يا سيدي ليس الحرب، بل ما يوقظه الجمال في النفوس.

وكان أوليفاريز، من بعيد، يراقب المشهد من خلف الأشجار، كاتباً في ذهنه فصول النجاح. لكنه، رغم دهائه، شعر بوخزةٍ إنسانية: أهذه الخطط التي ينسجها من أجل العروش قد تتحول حقاً إلى حب ؟

همس لنفسه:

ما أعجب الإنسان ، يظن أنه يدبّر، ثم يكتشف أن القلوب هي التي تدبّره.

تجري الرياحُ بما نُريدُ تارةً وتجيءُ أقدارُ القلوبِ بغيرِها

وحين مالت الشمس نحو الغروب، عاد الجميع إلى عرباتهم، لكن أحداً منهم لم يعد كما جاء.

عاد شارل وهو يحمل في ذهنه صورة ماريا، لا كأميرةٍ إسبانية، بل كامرأةٍ استطاعت أن تمسّ أعمق مخاوفه الإنسانية.

وعادت ماريا وفي نفسها سؤالٌ لم تفصح عنه:

هل يمكن أن يبدأ السلام بين أمتين من حديثٍ عن الخوف والوحدة ؟ ،

أما بكينام، فقد ظل قلبه موزعاً بين ذكرى الملكة آن الفرنسية، ذلك العشق المستحيل الذي سيتحول لاحقاً إلى بذرة هلاكه، وبين سحر توفيا الطازج الذي جاءه كنسمةٍ عابرة على نهر.

وهكذا، كان ما دار بين ولي العهد شارل والأميرة ماريا أكثر من مجاملةٍ ملكية؛ كان حوار روحين تحاولان النجاة من قسوة الأدوار التاريخية.

لم يتحدثا عن المهر ولا عن الكنيسة ولا عن شروط الزواج، بل عن الخوف، والوحدة، والسلطة، والإنسان المختبئ خلف التيجان.

ومن هنا بدأت الحكاية الحقيقية:

ليس من توقيع المعاهدات، بل من تلك اللحظة التي نظر فيها كلٌّ منهما إلى الآخر، فرأى إنساناً قبل أن يرى وريثاً أو أميرة.

وتلك، في منطق التاريخ النفسي والاجتماعي، هي اللحظة التي يتغيّر عندها كل شيء.

كان المساء الإسباني يهبط على ضفة نهر مانثاريس هبوطَ حريرٍ أندلسيٍّ فوق كتفي عروسٍ لم تعرف بعدُ أنها مقبلةٌ على قدرٍ يبدّل ملامح قلبها ومصير مملكتها.

الهواء عليلٌ، والنسيم رقيقٌ كأنّه أنفاسُ حدائق مدريد وهي تهمس لأشجار النارنج والرمان، والسماء تفيض بزرقةٍ شفيفةٍ يخطّها الشفق بخيوطٍ من ذهبٍ ذائب. وكان حديثُ الوصيفات خفيفًا، اجتماعيًّا، يدور حول لطف الجوّ، واعتدال المساء، ورقّة النسيم الذي يمرّ على الوجوه كيدِ أمٍّ حنون.

لكنّ الجوّ، على رقّته، لم يكن بطلَ المشهد.

العيون كانت هي البطلة الأولى.

نعم، العيون وحدها هي التي لعبت الدور الأوّل في ذلك الغرام العنيف الذي وُلد فجأة، بلا مقدّمات، كعاصفةٍ من الورد والنار معًا.

حين رفعت الأميرة ماريا بصرها، رأت الأمير شارل واقفًا غير بعيد، تحيط به هيبةُ النسب وفتنةُ الشباب. لم يكن المشهد طويلًا، غير أنّ اللحظات التي تتدخّل فيها الأقدار لا تُقاس بالزمن، بل بعمق ما تتركه في الروح.

نظرةٌ واحدة. ثم نظرةٌ أخرى. ثم صمتٌ طويلٌ داخل النفس، كأنّ القلبين دخلا في حوارٍ خفيّ لا تسمعه الآذان.

كانت ماريا يومئذٍ في الرابعة عشرة، لم تتجاوز بعدُ سنّ الطفولة إلا بخطوةٍ واحدة، لكنّ الحبّ لا يعترف بأعمار البشر؛ إنّه يهبط على الروح كما يهبط الوحي على الشعراء، بغتةً، فيحوّل البراءة إلى لهفة، والدهشة إلى يقين.

أكانت جميلة ؟ بل كانت، في أعين زمانها، أجمل فتاةٍ في إسبانيا.

وجهٌ مشرقٌ بنور الشباب، وشعرٌ ينسدل على كتفيها كليلٍ قشتاليٍّ ناعم، وعينان فيهما اتّساع الحلم الأندلسي وقلق البنات المقبلات على أول أسرار القلب.

طفلةٌ، نعم. لكنّها في تلك اللحظة صارت طفلةً عاشقة. طفلةً لا ترى في الدنيا إلّا ذلك الفتى الذي مرّ أمامها كأنّه خارجٌ من أساطير الفرسان، ولا تتردّد، لو أُذن لها، أن تتبعه إلى آخر الدنيا.

قالت في سرّها، وهي تشعر برجفةٍ خفيّةٍ تسري في أطرافها:

ما هذا الذي أصابني ؟ لماذا ضاق العالم فجأةً حتى صار كلّه في وجهٍ واحد ؟

ثمّ عادت تسأل نفسها، بوجل الصغيرات:

أهذا هو الحبّ الذي تتحدّث عنه الشاعرات في قصائدهنّ ؟ أهذه هي النار التي لا تُرى، ولكنّها تأكل القلب ببطء ؟

وتردّد في داخلها صوتٌ كأنّه حكمةُ الدهر:

وما الحبُّ إلا للحبيبِ الأوّلِ ، وكم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى ، وحنينُه أبدًا لأوّلِ منزلِ

أمّا الأمير شارل، فقد عاد إلى إسكاربال وهو ليس هو الرجل نفسه الذي أتى. عاد وجسده في عربته، أمّا روحه فظلّت هناك، على ضفة النهر، عند الفتاة التي ارتجف لها قلبه.

لم يكن في حديثه مع لورد بكينغهام إلا اسمها. جمالها، رقّتها، صوتها الموسيقيّ الذي يشبه عزف عودٍ بعيدٍ في ليلةٍ هادئة، ولمسة يدها التي مرّت على يده عابرةً، ولكنّها تركت في أعصابه أثرًا لا يزول.

قال له بكينغهام، ضاحكًا في خفّة الصديق الذي يعرف سرّ صاحبه:

ما جرى لحسّك الرومانسي يا صاحبي؟ لقد عدتَ رجلًا آخر.

فابتسم شارل، وفي عينيه بريقُ افتتانٍ لم يخفه، وقال:

لا تُحرجني، يكفيك أن تعلم أنّني لم أعد أرى في هذه الدنيا امرأةً سواها.

ثم سكت هنيهة، قبل أن يغوص في حديثه الداخلي:

أهذه هي التي سأقاسمها العمر ؟ أهذه التي يهدأ عندها اضطراب دمي ؟ ما أعجب أن يجد المرء وطنه في عينين !

في تلك الليلة، جلس إلى مكتبه، والشموع تحيط به، وأمسك قلمه ليكتب إلى أبيه الملك جيمس، وقد امتزج في صدره رجاء العاشق بقلق الأمير:

أبي العزيز ،

ليس أحدٌ أسعدَ منّي في هذه الدنيا. الأميرة ماريا هي فتاة أحلامي، بل هي الحلم نفسه وقد خرج من الضباب إلى الحقيقة. لا أدري ما سيكون موقف شقيقها الملك من الخطبة، ولا ماذا سيشترط بشأن قوانين الدولة وحرية العبادة للكاثوليك في إنجلترا، ولكن بحقّ السماء يا أبتِ، لا تدع هذه الأمور تحرمني من عروسي الجميلة. ،

ثم توقّف قليلًا، كأنّه يخاطب الورقة بصراحةٍ أشدّ من مخاطبة أبيه:

أيّها العرش، كم أنت قاسٍ حين تقف بين قلبين !

X

وفي الجانب الآخر من القصر، كانت ماريا بدورها تعيش ليلتها الأولى مع الحبّ.

جلست قرب نافذةٍ تطلّ على حدائق القصر، والنسيم نفسه الذي داعب صفحة المانثاريس يمرّ على وجنتيها. كانت بجانبها صديقتها الحميمة، الدوقة الشابة توفيا، ابنة أوليفاريز، التي لمحت في وجه الأميرة ما لم تكن تراه من قبل: ذلك الشرود الحلو الذي لا يسكن إلا عيون العاشقات.

قالت توفيا، مبتسمةً:

ما بالكِ يا ماريا ؟ كأنّكِ هنا بجسدك فقط. أين ذهبت روحك ؟

التفتت إليها ماريا، وقد احمرّ وجهها خجلًا، ثم قالت في صوتٍ خفيضٍ مبلّلٍ بالوجد:

توفيا ، لم أرَ من هو أجملُ، ولا أرقُّ، ولا أظرفُ من الأمير. صوته ، حضوره ، حتى صمته كان جميلًا. أرجوكِ، حدّثي والدكِ دون أوليفاريز ألّا يشترط ما لا يوافق عليه الملك جيمس، والد حبيبي.

رفعت توفيا حاجبيها دهشةً، وقالت:

حبيبكِ ؟ يا ماريا، أأغرقكِ في بحر غرامه بهذه السرعة ؟

عندها أطرقت الأميرة، ثم رفعت عينيها وفيهما لهفةُ من يعرف أنّ النجاة لم تعد مطلوبة، وقالت:

في ولهٍ بلا أملٍ في النجاة يا توفيا ، بل إنّ أملي الوحيد هو ألّا أنجو.

ثم ضحكت فجأةً، كأنّها أرادت أن تخفّف عن نفسها ثقل الاعتراف، وقالت بمكر البنات:

وأنتِ ؟ ما رأيكِ في لورد بكينغهام ؟

سكتت توفيا لحظةً، وتسلّل إلى وجهها خجلٌ ورديّ. كانت هي الأخرى قد وقعت أسيرة وسامته الإنجليزية ونبل حديثه.

قالت بصوتٍ حالِم:

إنّه جنّتي المأمولة يا أختي ماريا ، ولكن هل يوافق أبي ؟

فضحكت ماريا، وقد شعرت لأول مرة أنّ الحبّ لا يسكنها وحدها، وقالت وهي تضمّ يد صديقتها:

إذا تمّ زواجي من شارل، فلن أدع بكينغهام يفوتكِ يا توفيا، أعدكِ بهذا.

ثم غاصت كلٌّ منهما في صمتها. وكان الصمت هنا أبلغ من الكلام.

في داخل ماريا، كانت نفسُها الصغيرة تخوض أوّل صراعٍ بين ما تربّت عليه من وقار الملكات، وما اجتاحها من عصف العاطفة.

أأنا أميرة إسبانيا أم مجرّد فتاةٍ تحب ؟ هل يجوز لابنة التاج أن تسلّم قلبها بهذه السهولة ؟

لكنّ صوتًا أعمق كان يجيبها :

القلب لا يعرف البروتوكولات.

X

في تلك الأيام، صار القصر كلّه يقرأ الحبّ في ملامحها.

خطواتها أخفّ، حديثها أرقّ، شرودها أطول، وابتسامتها تولد بلا سببٍ ظاهر.

وحين كانت تمشي في الرواق الطويل، كانت تحدّث نفسها:

هل يفكّر بي الآن؟ هل يذكر ضفة النهر كما أذكرها؟ هل شعر بما شعرتُ به حين التقت أيدينا؟

ثمّ تتنهّد، كأنّها أكبر من عمرها بسنوات، وتهمس:

من لم يذق مرَّ التعلّق ساعةً ، تجرّع ذلَّ الجهل طولَ حياته

X

أمّا شارل، فكان يعيش القلق نفسه، ولكن بلغة الرجال الذين يخفون النار خلف الملامح الهادئة.

كان يعرف أنّ بينه وبينها ممالك، وديانات، وسياسات، ومجالس وزراء، وشروطًا يضعها التاريخ كالجدران بين المحبّين.

ومع ذلك، كان في داخله يقينٌ غريب:

إنّ المرأة التي رأيتها على ضفة المانثاريس لم تكن مصادفة، بل كانت قدرًا.

وهكذا بدأ الحبّ بينهما، لا بموعدٍ طويل، ولا برسائل امتدّت شهورًا، بل بنظرةٍ واحدةٍ صادقةٍ هزّت روحين في لحظةٍ خاطفة.

ذلك هو الحبّ حين يولد في القصور:

تبدأه العيون، وتعرقله العروش، وتباركه الأشعار.

وكان الليل الإسباني، كلّما هبط على مدريد، يحمل إلى نافذة ماريا نسمةً من النهر، فتبتسم وتغمض عينيها، كأنّ النسيم نفسه جاءها برسالةٍ من شارل.

وما كانت تدري، وهي تغفو على هذا الحلم الورديّ، أنّ الحبّ الذي بدأ همسةً على ضفة نهر، قد يصبح يومًا قضيةَ ممالك، وامتحانَ قلوب، ومأساةً يرويها التاريخ بمداد الدموع.

فما أصدق الحكمة القديمة:

تجري الرياحُ كما تجري سفينتُنا نحنُ الرياحُ ونحنُ البحرُ والسُّفُنُ

لكنّها، في تلك الليلة الأولى، لم تكن ترى من العالم كلّه إلا شيئًا واحدًا: عينين إنجليزيتين، وموعدًا مؤجّلًا مع القدر.

ليلةُ الحديقة الكبرى

تآمر الحبُّ مع العرش، وارتجفت أوروبا بين القلب والمذبح

ما إن بلغ الكونت أوليفاريز، ذلك الثعلب السياسي الذي كانت عيونه مزروعةً في الرمل كما تُزرع الخناجر في خاصرة الليل، نبأُ ما جرى في المقابلة الأولى، حتى أدرك أن اللحظة لم تعد ملكًا للعاشقين وحدهما، بل غدت ملكًا للتاريخ. كان رجاله مبثوثين على الشاطئ، بين الخدم والفرسان والبحّارة والمتسولين، حتى إن نسيم البحر نفسه بدا كأنه يحمل إليه الأسرار. وما إن تجمّعت الخيوط في يده حتى نسج منها مشهدًا مسرحيًا مهيبًا: حفلًا رسميًا علنيًا على شرف المير ولورد بكنغهام، حفلاً أراده أن يكون رسالةً إلى أوروبا كلها، لا وليمةً لضيفين فحسب.

في تلك الليلة، أضاءت القناديل أروقة القصر الإسباني كما لو أن النجوم هبطت من أفلاكها لتشهد مولد قدرٍ جديد. وتعالى صدى الموسيقى في القاعات، وامتزج عبير الورد الأندلسي بقلق الدبلوماسية الثقيلة. للمرة الأولى دوّى خبر الزيارة في القارة كلها، فتناقلته العواصم كما تتناقل النارُ الهشيم. فرنسا اشتعلت غضبًا؛ إذ رأت في هذا التقارب الإسباني الإنجليزي طعنةً في خاصرتها السياسية. وكان السفير الفرنسي حاضرًا بين المدعوين، جامد القسمات، لكن عينيه كانتا معلقتين بالأمير شارل والأميرة ماريا، كأنهما سهمان مسمومان.

لم يكن ينظر إليهما بوصفهما شابين متحابين، بل بوصفهما معادلةً قد تغيّر ميزان القوى في أوروبا. وكان قلبه، تحت مظهر اللباقة الدبلوماسية، يكاد ينفطر من حقدٍ وحسدٍ وغلٍّ دفين؛ فالحب في قصور الملوك ليس عاطفةً بريئة، بل شرارة قد تشعل حربًا.

قالت لصديقتي ، وقد استغرقتها الصورة: لعل أوليفاريز أفسح للعشاق الأربعة ميدان اللقاء السري في الحديقة الكبرى؟

قلت، وأنا أستعيد المشهد كأنني أراه:

نعم، ولكنه لم يكن كرمًا، بل كان دهاءً. لقد أفسح لهم المكان، وتحت الرقابة اللصيقة لجواسيسه دائمًا. كان يفتح لهم باب الحديقة بيد، ويشدّ حولهم خيوط المراقبة باليد الأخرى.

كانت الحديقة الكبرى في تلك الليلة تبدو كفردوسٍ أرضي؛ أشجار السرو شامخة كالحراس، والنوافير تهمس بأغنية الماء، والقمر

يسكب فضته على الممرات المرصوفة بالرخام. هناك، بعيدًا عن ضوضاء السياسة وقريبًا من نبض القدر، التقى شارل بماريا لقاءه الثاني.

وهنا فعل الحب الطائش بقلوب الشباب ما يفعله الربيع بالأغصان اليابسة: أيقظ فيها الحياة، وأوهمها بالخلود.

وقف شارل أمامها، لا بصفته وريث عرش إنجلترا، بل بصفته رجلًا خائفًا من ضياع المرأة الوحيدة التي رأى فيها معنى وجوده. كانت عيناه مضطربتين بين شوق الأمير وقلق السياسي، وفي أعماقه صراعٌ خفيٌّ بين تربيته الملكية ورغبات قلبه.

قال بصوتٍ خافت، لكنه مشحون بحرارة العهد:

أعدكِ يا ماريا أن أجعلك أسعد ملكةٍ في أوروبا كلها.

فرفعت الأميرة الإسبانية وجهها إليه، وكان في ملامحها مزيجٌ من الحياء النبيل والأنوثة المشرقة، وقالت:

وأعدك يا شارل أن تبقى سيد قلبي وحياتي إلى آخر لحظةٍ من عمري.

X

وفي تلك اللحظة، لم يكن العهد بينهما كلماتٍ فحسب، بل كان ميثاقًا نفسيًا عميقًا: حاجةٌ إنسانية إلى الخلاص عبر الآخر.

كان شارل، في أعماقه، يرى في ماريا تعويضًا عن هشاشته الداخلية، عن شعوره المزمن بأنه يعيش في ظل أبيه جيمس، ملكٍ مترددٍ تحاصره الأزمات. أما ماريا، فكانت ترى في شارل فرصةً للهروب من قسوة البلاط الإسباني، ومن حياةٍ تُدار فيها النساء كأوراق المعاهدات.

وما الحبُّ إلا للحبيبِ الأوّلِ ، وما الشوقُ إلا أن يطولَ التأمُّلُ .

لكن التاريخ لا يترك للعشاق متسعًا طويلًا للحلم.

جاءت لحظة المواجهة الحاسمة.

فيليب الرابع، الملك الإسباني، كتب في سريةٍ شديدة إلى البابا غريغوري الخامس عشر، يطلب موافقته على زواج الأميرة الكاثوليكية من الأمير البروتستانتي. كان الطلب في ظاهره شأنًا أسريًا، لكنه في باطنه زلزالٌ مذهبي وسياسي.

وجاء الرد الشفهي من روما صارمًا كحد السيف:

لا خطبة ولا زواج إلا إذا أعلن ملك بريطانيا عزمه على إلغاء القوانين المقيدة لحرية العقيدة للكاثوليك، ومنحهم الحق في بناء الكنائس حيث شاءوا، ثم ـــ وهو الشرط الأثقل ـــ الاعتراف بقداسة البابا رئيسًا أوحد للمسيحية في العالم.

سألت صديقتي ، وقد بدت الدهشة في صوتها:

أكان ولي العهد مستعدًا لقبول ما رفضه الشعب البريطاني كله ؟

قلت:

كان شارل، مثل أبيه جيمس، كاثوليكيَّ الهوى في أعماقه، وإن عاش في ظاهرٍ بروتستانتي. وكانت ذاكرته العائلية مثقلةً بظل ماري ستيوارت، تلك الملكة الكاثوليكية التي أعدمتها إليزابيث الأولى. لقد تربّى شارل على شعورٍ دفين بأن دماء الكاثوليكية تجري في نسبه كما يجري الماء في الجذور.

لهذا، ومن فرط رغبته في الأميرة الصغيرة ماريا، كان على استعدادٍ نفسيٍّ لقبول ما يشترطه البابا.

بل إننا إذا غصنا في أعماقه، وجدناه يعيش توترًا وجوديًا بين هويته السياسية وهويته العاطفية. كان يريد أن يكون ملكًا محبوبًا، لكنه كان يريد قبل ذلك أن يكون رجلًا مكتملًا في عيني المرأة التي أحب.

فكتب إلى أبيه رسالةً ستغدو فيما بعد من أخطر الأدلة التي استخدمها البرلمان ضده، حين اتهمه بخيانة آمال الشعب وعقيدته.

جاء في رسالته:

بابا روما يعارض هذا الزواج معارضةً شديدة، ويشترط ما لا أحسب أنك يا أبي العزيز ستقبله. يطلب اعترافك به رئيسًا أوحد للمسيحية في العالم، والموافقة على بعض التنازلات الخاصة بإقامة الكنائس الكاثوليكية في بريطانيا.

أرجوك أن توافق يا أبي ، أرجوك ، أتوسل إليك. ،

في هذا التوسل انكشفت نفسية شارل كلها:

لم يكن صوت وريث العرش، بل صوت رجلٍ سلبه الحب توازنه العقلي والسياسي.

لقد انكمشت في داخله مسافة الحكم، واتسعت مسافة القلب. وكما قال الحكماء:

إذا دخل الهوى عمي البصيرُ عن الهدى ، فصار يرى في النارِ روضًا أخضرَا

وسألت صديقتنا :

أكان في استطاعة جيمس الأول تحقيق مطالب البابا بغير موافقة البرلمان ؟

قلت:

كلا، بالطبع.

فالملك، مهما بدا مطلق السلطان، كان يعرف أن إنجلترا ليست إسبانيا، وأن عرشها يقوم على توازنٍ حساس بين التاج والبرلمان والكنيسة.

ومع ذلك، أراد جيمس أن يختبر أولًا موقف الروح الدينية في بلاده، فاتجه إلى أسقف كانتربري، رأس الكنيسة البروتستانتية، قبل أن يعرض الأمر على البرلمان.

دخل عليه الملك، وفي نفسه شيءٌ من رجاء الأب الذي يريد إسعاد ابنه، وشيءٌ من خوف الحاكم الذي يعرف هشاشة التوازن. لكن الأسقف، ما إن سمع الشروط، حتى انتفض كأنما لسعته نار العقيدة.

قال غاضبًا:

يا صاحب الجلالة، إن هذا يعرّض عرشكم لهزّةٍ قد تودي بأسرتكم العظيمة كلها. إنني، باسم الكنيسة البروتستانتية، أرفض تمامًا النزول عند مطالب بابا روما. كلها مرفوضة يا صاحب الجلالة ، كلها.

وسقطت الكلمات في قلب جيمس كالحجارة.

فهو بين نارين: قلب ابنه المشتعل حبًا، وعرش أسرته المهدد بالانهيار.

هنا يبلغ المشهد ذروته الدرامية؛ إذ لم يعد الصراع بين إنجلترا وإسبانيا، ولا بين الكاثوليكية والبروتستانتية، بل أصبح صراعًا داخل النفس الإنسانية نفسها:

كيف يختار الإنسان بين ما يريد وما يجب ؟

شارل في تلك اللحظة لم يكن يرى السياسة، بل كان يرى وجه ماريا في ضوء القمر، ويسمع وعدها الأبدي يتردد في ذاكرته. أما جيمس، فكان يرى أشباح الثورات، وصيحات البرلمان، وذكريات الدم التي سالت في تاريخ المذاهب.

تجري الرياحُ بما لا تشتهي سفنٌ ، ويجري الحكمُ أحيانًا بما لا يشتهي القلبُ

وهكذا وقف الحب على حافة الهاوية، بين قلبين تعاهدا في الحديقة الكبرى، وعالمٍ كاملٍ يرفض أن يسمح للعاطفة بأن تغيّر خرائط الإيمان والسلطة.

X

في تلك الليلة، لم تنم أوروبا.

نامت القصور على حريرها، لكن القلوب ظلت يقظة:

قلبُ عاشقٍ ينتظر موافقةً من أبٍ متردد ، وقلبُ أميرةٍ تصلي أن ينتصر الحب على العقيدة ، وقلبُ ملكٍ يدرك أن عرشًا واحدًا قد يسقط إذا انتصر قلبٌ واحد.

وهنا تتجلّى حكمة التاريخ الخالدة:

ليس أخطر على الممالك من قلبِ أميرٍ عاشق ، ولا أشدُّ فتكًا بالحب من حسابات العروش.

ارتجفَ العرشُ بين الحبِّ والعقيدة

في تلك اللحظة الحرجة من تاريخ أوروبا، حين كانت الممالك تُدار بقلوب الملوك بقدر ما تُدار بأختامهم، وحين كان الحبّ نفسه قد

يتحوّل إلى معاهدة، أو إلى حربٍ مؤجّلة، تراجع الملك جيمس عن عرض الأمر على البرلمان.

لم يكن التراجع وليد تردّد عابر، بل كان ثمرة خوفٍ سياسيٍّ عميق؛ فالبرلمان الإنجليزي، المتحفّز لكل ما يمتّ بصلة إلى الكاثوليكية، كان يرى في اقتران وليّ العهد الإنكليزي بالأميرة الإسبانية ماريا انزلاقًا نحو هاويةٍ مذهبيةٍ لا قرار لها.

وفي روما، بلغ البابا خبرُ ما جرى، فاهتزّ له مجلسه الكنسي كما تهتزّ شموع المذابح إذا مرّت بها نسمة ليلٍ باردة. أدرك أن الأمر لم يعد شأن قلبين، بل شأن كنيسةٍ تخشى أن تفقد موضع قدمها في جزيرةٍ طالما استعصت عليها.

لذلك بعث برسالة عاجلة إلى الملك الإسباني فيليب الرابع، يوصيه فيها بلهجةٍ لا تخلو من الأمر:

أنصح بأن تغادر الأميرة ماريا القصر الملكي، وأن تبقى في دير سان جيروم حتى تنتهي هذه الزيارة غير المرغوب فيها.

وكانت الكلمات في ظاهرها نصيحة، لكنها في حقيقتها كانت إرادةَ الكنيسة تُلقى في أذن العرش.

نزل الملك الإسباني عند رغبة البابا، فقد كان يعرف أن العروش، مهما علت، تظلّ في حاجةٍ إلى مباركة السماء.

فأُبعدت ماريا عن أروقة القصر، ونُقلت إلى دير سان جيروم، حيث الجدران الصامتة، والشموع الساهرة، والصلوات التي ترتفع مثل أنفاس الأرواح.

لكن ماريا، تلك الأميرة التي نشأت بين البروتوكول والتراتيل، لم تكن يومًا قد اختبرت سطوة القلب حين يتمرّد على كل شيء.

بكت طويلًا. بكت كما تبكي المدن إذا غادرها الربيع. وبصوتٍ مخنوقٍ بالرجاء والتهديد، صاحت في وصيفتها:

أأُحرم منه بعد أن صار اسمه يسكن نبضي؟ والله لأقتلنّ نفسي إن فُصل بيني وبين حبيب القلب.

هنا يبدأ الغوص في أعماقها النفسية؛ فقد كانت ماريا ممزقة بين ثلاث قوى: قوة الدين، وقوة العرش، وقوة الحب.

في داخلها، كان صوتان يتحاوران.

قال صوت الأميرة الملكية: أنتِ ابنة آل هابسبورغ، لا يحق لكِ أن تجعلي العاطفة أعلى من الدولة.

فأجابها صوت المرأة العاشقة:

ولكن ما الدولة إن خلت من نبض الإنسان ؟ وما المُلك إن صار قبرًا للقلب ؟ ،

وصدق الحكيم إذ قال:

القلبُ سلطانٌ لا يطاوعه إلا من ذاق أسره. ،

خرجت الأسرار إلى شوارع مدريد كما يخرج العطر من زجاجته إذا انكسرت.

تلقّفها الدهماء، وردّدها الشعراء، وصاغها الفنانون لوحاتٍ وأغنيات.

فالشارع الإسباني، بعفويته الحارة، كان يرى في هذا الحب ملحمةً إنسانية لا مجرد صفقة دبلوماسية.

وكان من بين من استجابوا لنداء الحكاية الشاعر الكبير لوب دي فيغا، الذي خطّ أبياتًا ذاعت في المجالس:

ها أنذا شارل ستيوارت

جئتُ محمولًا على جناحي كيوبيد

من بعيد، عبر مياهٍ كثيرة

جئتُ إلى إسبانيا

لأشاهد جمال عروسي

نجمتي ماريا الجميلة

محبٌّ أنا، محبّةٌ هي

فلتدقّ أجراس الكنائس من كل مذهب

فالحبُّ هو الكلمة التي جاء بها المسيح

وكانت هذه الأبيات أشبه بإعلانٍ شعريٍّ أن الشعب سبق الساسة إلى مباركة هذا الاتحاد.

ثم جاء صوتٌ آخر من قلب القصر نفسه.

الدوق دي موكيدا، ممثل البلاط، وأحد ألمع كتّاب العصر، نشر في صحيفة، أخبار مدريد ، مقالًا باسمه الصريح، متحدّيًا مواربة السياسة:

، أهلًا بالضيف القادم من الشمال، تحيطه بركات رغبته الطاهرة. ماذا يريد صاحب القداسة من إسبانيا ؟

أأن تظل لعبةً في يد ساسة فرنسا يزجّون بها في حروبٍ أبدية باسم الكاثوليكية ؟

اسألوا رجل الشارع في إسبانيا، ألا ترون الشوارع كلها مزينة فرحًا بالزواج المقترح ؟ ،

كان المقال صرخة مجتمعٍ تعب من أن تتحكم العقائد في مصائر البشر.

ولما سُئلتُ، كأنني شاهدة على مسرح التاريخ:

ولا يزال ولي العهد والوزير الخطير بكنغهام في إسبانيا ؟ ،

قلت:

نعم، لا يزال تشارلز ستيوارت يتردد، بعلم الملك وغاسبار دي غوثمان كونتدوق أوليفاريس، على قصر الألكاثار.

كان يقابل العاشقة المعشوقة في الحديقة الجميلة، مرةً في ضوء القمر، ومرةً في غير ضوء القمر أيضًا.

كانت الليالي هناك تُكتب بماء الفضة.

الأشجار ساكنة كأنها حراس من زمنٍ أسطوري، والنوافير تهمس بأسرار العشاق.

اقترب تشارلز منها ذات ليلة، وقال بصوتٍ خفيض:

ماريا، أأنتِ لي حقًا، أم أنني أطارد ظلًّا تصنعه السياسة؟ ،

خفضت عينيها، وقالت:

لو كان الأمر لي وحدي، لجعلتُ العالم كله ديرًا للحب، لا ديرًا للفراق. ،

X

في تلك اللحظة، كان تشارلز يعيش صراعًا نفسيًا معقدًا. هو الأمير الذي تربّى على أن الملك لا يبكي، ولا يضعف، ولا ينتظر امرأة خلف بوابة دير. لكنه الآن كان يشعر أن كل ما تعلّمه عن المُلك يتداعى أمام رعشة يدٍ واحدة.

قال في نفسه:

أيّ عرشٍ هذا الذي يعجز عن ضمّ امرأة ؟ ، وأيّ قوةٍ أملك إذا كانت الكنيسة أقوى من قلبي؟ ،

ولم تكن الدوقة توفيا - وصيفة ماريا - أقل شوقًا إلى تلك الجلسات من سيدتها.

بل لعلها كانت ترى فيها روايةً حيّة تُكتب أمام عينيها.

وقيل همسًا إن جورج فيليرز دوق بكنغهام الأول كان يصحب ولي العهد في تلك المغامرات الليلية، يدبّر له المواعيد، ويؤمّن الطرق.

لكن العشاق لم يكونوا وحدهم. كان هناك جواسيس الملك الإسباني، يختبئون وراء الأروقة والأعمدة. وكانت عيون فرنسا ترقب من بعيد، تخشى أن تميل كفة التحالفات. بل إن بعض عيون البابوية نفسها كانت تتابع أنفاس اللقاءات.

سُئلتُ:

وكيف سكت البابا على إهمال رأيه ؟ ،

فقلت:

لم يسكت، لكنه كان يومئذٍ في مرض موته، يصارع ساعاته الأخيرة. ثم خلفه البابا أوربان الثامن، وكان أشد قسوةً وأبعد نظرًا في السياسة. فكتب إلى ملك إسبانيا مهددًا، واضعًا شروطًا خمسة بدت كأنها أسوارٌ من حديد حول قلبين من لحم:

أولًا: الاعتراف به رئيسًا للكنيسة البريطانية.

ثانيًا: أن تظل الأميرة ماريا على العقيدة الكاثوليكية، وتُمنح الحرية الكاملة في ممارسة طقوسها.

ثالثًا: إذا رُزق الزوجان أبناء، فيُعمَّدوا على المذهب الكاثوليكي.

رابعًا: ألا يُحرم هؤلاء الأبناء من حقهم في وراثة العرش البريطاني.

خامسًا: أن تُلغى قبل إتمام الخطبة كل القوانين البريطانية التي تمنع إنشاء الكنائس الكاثوليكية، مع تثبيت حق القساوسة في التبشير علنًا.

هنا بلغ التوتر ذروته. فالشرط الأخير لم يكن شرط زواج، بل كان إعادة رسم الخريطة الروحية لإنجلترا.

X

وقف تشارلز أمام النافذة تلك الليلة، والريح تعبث بستائر قصره، وقال في مونولوج داخلي عميق:

أأضحّي بماريا لأحفظ المملكة ؟ أم أضحّي بالمملكة لأحفظ نفسي ؟ ما أقسى أن يُمتحن الرجل بين قلبه وتاجه. ،

ثم تمتم بحكمةٍ أقرب إلى اعتراف:

الملوك أسرى ما يملكون ، والعشاق أحرارٌ بما يفقدون. ،

X

وهكذا ظلّت قصة شارل وماريا معلّقة بين جرس كنيسةٍ ووقع حوافر حصانٍ ليلي، بين ديرٍ يحتجز الجسد وحديقةٍ تطلق الروح، بين البابا الذي يرى في الزواج قضية عقيدة، والشعب الذي يراه قصيدة حب.

لقد كانت تلك الحكاية أكثر من قصة غرام؛ كانت مرآةً لعصرٍ كامل، يتصارع فيه الإنسان مع المؤسسة، والعاطفة مع السلطة، والمرأة مع قدرها الملكي.

وفي أعماق ماريا، ظل سؤالٌ واحد يشتعل:

هل خُلقتُ أميرةً لأكون جسرًا بين الممالك، أم امرأةً لأكون وطنًا لقلبٍ واحد ؟ ،

وذلك، في جوهره، هو السؤال الذي لم تجب عنه السياسة يومًا، لكن الأدب ظل يردده عبر القرون.

دموع على أسوار الألكازار
حين هزم العشقُ عروشَ القرن السابع عشر

ما إن وصلت إلى البرلمان البريطاني الصحيفةُ الرسمية التي حملت نصَّ خطاب البابا وملِك إسبانيا، حتى ارتجَّت القاعة العتيقة بأصداء الغضب المكتوم، وتماوجت الوجوه تحت ضوء الشموع كأنها أمواج بحرٍ شتويٍّ ثقيل. كانت الكلمات المكتوبة في ذلك الخطاب أشبه

بسيوفٍ مذهَّبة؛ لا تُريق الدم، لكنها تُريق الهيبة، وتُحاصر الملوك داخل أسوار سلطتهم نفسها.

في تلك اللحظة، لم يكن الملك جيمس الأول يجهل ما ينتظره. كان يدرك، بحدس الملك الذي خبر دهاليز السياسة كما خبر دهاليز نفسه، أن البرلمان هذه المرّة لا يطلب مشورة، بل يفرض إرادة.

وطالب النواب، في لهجة لا تعرف التردد، باستدعاء ولي العهد الأمير شارل، ومعه وزيره ورفيق ظله دوق بكنغهام، على الفور.

وخضع جيمس الأول لرغبة البرلمان.

لا لأنه ضعيف، بل لأنه كان أذكى من أن يُشهر سيفه في وجه عاصفة لا تُهزم. كان يعرف أن تحدّي البرلمان في تلك اللحظة ليس بطولة، بل انتحارٌ مؤجَّل. وبين ميوله الكاثوليكية التي ظلّت تسكن أعماقه كسرٍّ شخصيٍّ لا يبوح به، وبين حسابات الملك الذي يريد بقاء العرش، اختار البقاء.

أرسل رسله مسرعين إلى مدريد.

وهناك، في القصر الإسباني، بعيدًا عن ضجيج السياسة، كانت مأساة أخرى تتشكّل؛ مأساة أكثر رهافةً وأشدّ فتكًا: مأساة الحب حين يُولد بين تاجين.

كان الوداع بين العشاق الأربعة وداعًا يليق بالملاحم.

شارل وماريا. وبكنغهام وتوفيا.

أربع قلوبٍ تتشظّى في صمتٍ مهيب، كأن القدر قد جمعهم فقط ليعلّمهم كيف يكون الفقد.

وقف شارل أمام محبوبته الصغيرة، وفي عينيه بريق حماسٍ طفوليٍّ يختلط بجنون الشباب، وقال بصوتٍ مرتجف، كأنما يخشى أن تهرب الكلمات قبل أن تبلغ قلبها:

ماريا ، تعالي معي.

ثم اقترب أكثر وهمس:

لن نهرب من القصر فقط ، سنهرب من التاريخ نفسه. أنتِ وتوفيا، سنعبر البحر، وسنتزوج في بريطانيا. هناك لا سلطان إلا للحب.

رفعت ماريا عينيها إليه. كانت عيناها ليلتين من الأندلس: فيهما نجوم، وفيهما حزنٌ قديم. ارتعشت شفتاها قبل أن تقول:

لو هربتُ معك يا حبيبي، لمات أبي الملك من فرط العار، ولاضطر الكونت أوليفاريز إلى أن يغرس خنجره في صدره.

ثم سكتت لحظة، وأضافت بصوتٍ منكسر:

الحب ليس وحده من يسكن قلبي يا شارل ، في داخلي وطنٌ واسمٌ ودمٌ ملكيٌّ يجرُّني من يدي كلما هممت بالطيران.

هنا بدأ الصراع النفسي ينهش الأمير الإنجليزي.

كان شارل في أعماقه ممزقًا بين صورتين: صورة العاشق الذي لا يرى في الدنيا سوى وجه امرأة، وصورة الوريث الذي وُلد ليكون رمزًا لأمة. كان يشعر، لأول مرة، أن التاج قد يكون قيدًا من ذهب، وأن الأمير ليس إلا إنسانًا يُمنع حتى من حق البكاء.

حدّث نفسه في مرارة:

أيُّ عرشٍ هذا الذي يهبني البلاد ويحرمني امرأة ؟ وأيُّ مجدٍ ذاك الذي يجعل الرجل سيد شعبه وأسير قلبه ؟

ثم قال بصوتٍ حاسم، كأنه يحاول إقناع نفسه قبل أن يقنعها:

ماريا، لم يعد أمامنا إلا هذه الوسيلة. الفرار هو الخلاص الوحيد.

في اضطرابٍ لذيذ يشبه رعشة الوردة تحت المطر، قالت العاشقة المعشوقة:

سأتبعك إلى آخر الدنيا ، ولكن كيف؟

قال شارل، وقد أخذ يرسم الخطة كمن يرسم مصيرًا:

في الغد سأرتب كل شيء. سنغادر مدريد في سريةٍ شديدة، نسبق الجميع إلى أقرب ميناء، ومن هناك نعبر إلى إنجلترا قبل أن تستيقظ العيون.

هزّت رأسها بعنف، واشتد الخوف في صوتها:

غدًا لن يسمحوا لكما بدخول القصر. أشعر أن شيئًا يُدبَّر في الظلام. لنهرب الآن يا شارل، الليلة، قبل أن يغلق القدر أبوابه.

نظر حوله إلى الحديقة الغارقة في ظلال البرتقال والريحان، وإلى الحرس المنتشرين كالأشباح، وقال:

وكيف ونحن مراقبان من كل مكان؟

ثم اقترب حتى كادت أنفاسه تلامس وجهها:

غدًا، في مثل هذه الساعة، كوني في انتظاري مع توفيا هنا، عند هذا الركن من الحديقة. سأتسلق سور القصر مع بكنغهام، وسنحملكما معنا إلى إنجلترا.

اغرورقت عينا ماريا بالدموع، وقالت في رجاء امرأةٍ ترى مستقبلها معلقًا بخيط:

كن حذرًا يا حبيبي. سأنتظرك مع توفيا. لا تذهب إلى بلادك من دوني ، وإلا قتلتُ نفسي.

هنا انكسر شيءٌ ما في داخل شارل.

كان يعرف أن النساء حين يقلن ذلك لا يهددن، بل يسلّمن أرواحهن إلى كلمة. شعر لأول مرة بثقل المسؤولية العاطفية، وبأن الحب ليس نشوةً فقط، بل دينٌ في العنق.

وتسلل إلى أعماقه صوتٌ داخلي يقول:

من أحبَّ بحقٍّ حمل روحَين في صدره. ،

ومضت الليلة الأولى كأنها قرن.

أما الليلة الثانية، فكانت ليلة القدر المظلم.

نجح العاشقان، شارل وبكنغهام، في تسلق السور بمساعدة رجال السفارة البريطانية. كانت السماء ملبدة بغيومٍ رمادية، والقمر محجوبًا كأنه يتآمر مع الحراس. تسرّب الرجلان في صمت القطط البرية، وتقدّما نحو الموعد الموعود.

لكن الحديقة كانت خالية.

فارغة إلا من ريحٍ باردة تعبث بأوراق الأشجار.

لا ماريا. لا توفيا. لا أثر إلا للصمت.

وفي تلك اللحظة، أحس شارل أن قلبه يهوي في بئرٍ بلا قاع.

أسرع أحد الخدم الموالين سرًّا وأخبرهم بالحقيقة:

لقد أُودعت الأميرة ووصيفتها غرفةً قصيةً في قصر الألكازار، بأمرٍ مباشر من الملك.

كان القصر في تلك اللحظة يبدو لشارل كوحشٍ حجريٍّ ابتلع محبوبته. أطبق على السور بيديه حتى كاد الدم يخرج من أصابعه، وهمس في وجع:

إذن هُزمنا ، لا أمام الجنود، بل أمام الزمن.

قال بكنغهام، وكان أكثر تماسكا وإن لم يخلُ صوته من الأسى:

ليست كل الهزائم نهاية يا سيدي، بعضُها بدايةُ مأساةٍ يخلدها التاريخ.

X

وفي مجلسنا، سألت صديقتنا، وقد كانت مأخوذةً بسحر الحكاية:

وهكذا فشل الزواج الرومانسي الوحيد في طول القرن السابع عشر؟

قلتُ، وأنا أتأمل كيف يسخر التاريخ من أنقى المشاعر:

نعم، لقد كان حبًّا أكبر من عصره، ولذلك لم يسمح له العصر بالحياة.

قالت في أسف:

هذا مؤسف ، فمن تزوجت ماريا؟

تنهدتُ طويلًا، كمن يفتح باب قبرٍ قديم، ثم قلت:

ماريا لم تتزوج. دخلت الدير، كما تدخل الأرواح المكسورة إلى صمتها الأخير. هناك لبست البياض لا بوصفه لون الطهر فقط، بل بوصفه لون الفقد. وقبل أن تبلغ العشرين من عمرها، ماتت.

وساد الصمت.

ثم أضفتُ بصوتٍ أخفض:

قيل إنها انتحرت حبًّا، لأن قلبها لم يحتمل أن يعيش منفصلًا عمّن اختاره. وقيل إن السم دُسَّ لها في الطعام ببيدٍ فرنسية ، أو رومانية ، فالقصور يا صديقتي لا تقتل بالسيوف فقط، بل بالملاعق أيضًا.

إن النفس حين تُحاصر بين الواجب والرغبة قد تختار الفناء لا لضعفها، بل لأنها تعجز عن احتمال الانقسام.

ماريا لم تمت مرةً واحدة. ماتت أولًا حين أُغلقت عليها الغرفة. وماتت ثانيةً حين أبحر شارل من دونها. وماتت ثالثةً حين أدركت أن الراهبات لا يداوين القلب، بل يعلّمنه كيف يصمت.

X

رفعت صديقتنا رأسها وسألت، وقد اتسعت عيناها بالفضول:

وشارل ؟ ماذا كان مصيره ؟

ابتسمتُ ابتسامةً فيها مرارة القرون، وقلت:

لن تصدقي ، لقد تزوج هنرييتا، أخت لويس الثالث عشر، تلك الأسرة ذاتها التي كانت خيوط السياسة فيها تنسج نهايات الملوك.

ثم سكتُّ لحظة، وأكملت:

لكنه لم ينجُ من شبح تلك الليلة في مدريد. ظلّت ماريا، في أعماقه، الجرح الذي لا يلتئم. حتى حين صار ملكًا، كان في داخله ذلك الأمير الذي وقف تحت سور الألكازار ينتظر امرأةً لم تأتِ.

وهنا يبلغ التحليل النفسي ذروته.

فشارل، الذي أصبح لاحقًا تشارلز الأول، حمل إلى عرشه نفسية رجلٍ جُرح في شبابه مرتين: مرةً في الحب، ومرةً في الكرامة السياسية. ومن يُهزم في شبابه بين امرأةٍ وبرلمان، قد يقضي عمره يحاول الثأر من العالم.

لذلك كان صدامه مع البرلمان لاحقًا أعمق من مجرد خلافٍ دستوري؛ كان صراعًا نفسيًّا بين رجلٍ يريد أن يستعيد سلطته على مصيره، ومؤسسةٍ ذكّرته دومًا بأنها منعت عنه الحب أولًا، ثم العرش أخيرًا.

وحين حوكم بتهمة الخيانة العظمى، لم يكن التاريخ يحاكم ملكًا فقط، بل كان يحاكم سلسلةً طويلة من الكسور الداخلية.

وفي صباح الإعدام، حين انحنى رأسه تحت بلطة الجلاد، بدا كأن القدر يُغلق الدائرة التي بدأت يوم وصل خطاب مدريد إلى لندن.

كان أول وآخر ملكٍ بريطاني يحاكمه البرلمان ويحكم بإعدامه.

يا للمفارقة!

البرلمان الذي استدعاه من حضن الحب، هو نفسه الذي استدعاه بعد سنين إلى منصة الموت.

وهكذا يصدق قول الحكمة: من لم تُهذِّبه الليالي، هذّبته النهايات.

إنها ليست قصة حب فاشلة فحسب، بل قصة قرنٍ كاملٍ تصارع فيه القلب مع التاج، والإنسان مع الدور، والرغبة مع التاريخ.

في النهاية، لم ينتصر أحد. لا ماريا ربحت الحب. ولا شارل ربح العرش. ولا البرلمان ربح السلام.

الذي انتصر وحده هو التاريخ؛ ذلك الكاتب البارد الذي يحوّل دموع العشاق إلى سطور، ويحوّل الملوك إلى عبرة.

ويبقى على أسوار الألكازار، في الخيال الأدبي، صدى همسةٍ لم تمت:

لا تذهب إلى بلادك من دوني ،

لكنه ذهب. فذهبت معه أعمارٌ كاملة من الحلم.